

الباب الثالث

الصور المُميّزة لحياة هُذَيْل

الفصل الأول : بَيْنَ أَفْنَاءِ الْبَادِيَةِ .

الفصل الثاني : مَصَادِرُ الثَّرَوَاتِ فِيهَا .

الفصل الثالث : عَلَى نَجَادِ الْإِسْتِقْرَارِ وَفِي وَهَادِ الْإِنْتِشَارِ .

الفصل الرابع : بَلَغَتْهَا وَفَصَّاحَتْهَا .

الفصل الأول

بين أفناء البادية

البادية هي الأرض التي ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك، والبادوة هي الإقامة بالبادية وهي خلاف الحضارة، وفي الحديث الشريف: "مَنْ بَدَا جَفَا" أي: مَنْ نَزَلَ البادية صار فيه جَفَاءُ الأعراب^(١).

والبدو كانوا يمثلون غالبية السكان في الجزيرة العربية، وهم قبائل مُتَفَرِّقَةٌ متناثرة في الصحراء التي تُعْرَفُ بِالْجُدُبِ وَالْقَحْطِ، وهم أقوامٌ رَحُلٌ يسكنون الخيام ولا يَقْرُونَ في مكانٍ، لأنَّهم يطلبون الكلاً فيتبعون مساقط الماء، ومنابت العشب حيث يَرَحَلُونَ إليها بأغنامهم وآبالهم التي يأكلون لحومها وألبانها، وَيَلْبَسُونَ أَصْوَافَهَا، ثم يتخذون من أصوافها وأوبارها مساكن لهم.

ولجذب بلادهم وانصرافهم عن أوجه التكبُّب الأخرى، يُعرف عنهم القناعة من العيش بالكفاف، فلم يفتنوا في ألوان المطاعم والملابس، بل كانوا يعيشون غالباً على اللبن والتمر واللحم، وكانوا يأنفون من الاشتغال بالزراعة والصناعة والتجارة، بل كانوا يحتقرون مثل هذه الأعمال ويرون فيها عاراً كبيراً، ومن عاداتهم الافتخار بالبطولة والقدرة على القتال والنزال، ولا شك أنَّهم أكثر شجاعة وأقلُّ حُباً للمال من أهل الحضرة.

وحياة العرب في البادية حياة قراع وصراع وحروب وقتال، وقد انتشرت بينهم الغارات والسلب والنهب، حيث يغيرون على القبائل المعادية فيأخذون جمالهم وشاءهم ويسبون نساءهم وأولادهم، ثم تترصد بهم القبائل الأخرى لتدرك ثأرها وترد شرفها، فتفعل بهم مثل ما فعلوا بها، وقد اعتمدوا على الخيل في السلم وفي الحرب يصطادون بها الوحش من الحيوان للغذاء، ثم يغيرون بها ويقاتلون الأعداء، وكذلك الإبل التي كانت عوناً لهم في الحرب كما كانت في السلم، واعتمدوا عليها في حياتهم ومعاشهم، فهي تُدرُّ لهم الحليب، وتحملهم في الأسفار، وكثيراً ما كانت تُقدَّرُ الثروة عندهم بما يملكه الرجل من الحيوانات ولا سيما الإبل والخيل التي كانت لها قيمة عظيمة في نظرهم، ولذا كان العربيُّ يميلُ إلى الإكثار منها، لأنها المورد الحقيقي للرزق والثروة.

(١) بلوغ الأرب للالوسي ٤٢٥/٣.

والمطرُ في البادية قليلٌ بوجه عامٍّ، ويستبدُّ بها الجفافُ، وينتشرُ فيها الجدبُ والقحطُ، فليس فيها من زرعٍ إلا ما ينبتُ من الأعشاب والنباتات، وهي قليلةٌ عموماً، وذلك تبعاً لسقوط الأمطار، ولذلك يهتم السكانُ بالأمطارِ كثيراً، فيترقَّبون هطولها، ويتناقلون أخبارها، لأنَّ فيها الخيرَ والحياةَ لهم ولأنعامهم، وكانوا يفرحون بالمطرِ ويتيمنون لسقوطه، ويطلقون عليه اسم الغيث، لأنه يُغيثُ الأرضَ ويكسبُها الخصبَ والنماءَ، ويُسعفُ أهلها فيسقيهم ويحيي لهم الزرعَ والضرعَ. ومناخُ الجزيرة العربية في جملته حارٌّ شديد الحرارة في أغلبِ فصولِ السنة، وذلك لوقوع أكثر البلاد في المنطقة الحارة، وقد يعتدل الليلُ في المناطق المرتفعة صيفاً، ولكنه حارٌّ شديد الحرارة في البادية والصحراء، وتكون درجة الحرارة في داخل جزيرة العرب مرتفعةً عادةً فلا تهبطُ في الصحراء إلى أقلِّ من ٣٤ درجة نهاراً و ٣٨ درجة ليلاً^(١). "والجدبُ والحَرُّ من أظهر ما عُرِفَتْ به جزيرة العرب منذ القديم، والجدبُ على الخصوص هو أشدُّ ما تعانیه... ويدوم المطرُ في جزيرة العرب بضعة أشهرٍ على العموم، ومتى احتبسَ عمَّ الخرابُ، وأصبحت تلك البلادُ غيرَ صالحةٍ للسكنِ تقربياً، ويقترنُ القحطُ في جزيرة العرب بريحِ السَّمومِ في الغالب، وريحُ السَّمومِ وعدمُ الماءِ أشدُّ ما تقاسيه القوافلُ في جزيرة العرب من أخطارٍ"^(٢) وقد ذكر ابنُ خلدون في مقدمته^(٣) عدَّة فصولٍ تشتمل على فروقٍ شتَّى بين البدو والحضرِ.

١- فمن ذلك أنَّ البدو أقدمُ من الحضَرِ وسابق عليه، وأنَّ البادية أصلُ العمرانِ والأمصارُ مدد لها، وأنَّ البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم، والعاجزون عما فوقه، وأن الحضَرُ هم المعتنون بحاجات الترفِ والكمالِ في أحوالهم وعوائدهم، ولا شكَّ أنَّ الضروري أقدمُ من الحاجيِّ والكماليِّ وسابق عليه، ولأنَّ الضروري أصلُ والكماليِّ فرعٌ ناشئٌ منه، فالبدو أصلٌ للمدن والحضرِ، سابقٌ عليهما، لأنَّ أوَّلَ مطالب الإنسان الضروريِّ، ولا تنتهي إلى الكمالِ والترفِ إلا إذا كان الضروريُّ حاصلًا، فخشونةُ البداوة قبلَ رِقَّةِ الحضارة، ولهذا نجدُ التمدنَ غايةً للبدو يَجْرِي لها، وينتهي بسعيه إلى مُقْتَرِحِهِ منها.

(١) حضارة العرب جوستاف لوبون ص ٤١.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠.

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٢ وما بعدها.

٢- ومنها أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة، والسبب في ذلك أن النفس إذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر، ويقدر ما سبق إليها من أحد الخلقين، تبعُد عن الآخر ويصعب عليها اكتسابه، فصاحب الخير إذا سبقت إلى نفسه عوائد الخير وحصلت لها ملكته، بعد عن الشر وصعب عليه طريقه، وكذا صاحب الشر إذا سبقت إليه أيضاً عوائده، وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد الترف، والإقبال على الدنيا، والعكوف على شهواتهم منها، قد تلونت أنفسهم بكثير من مذومات الخلق والشر، وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من ذلك، حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في بعض أحوالهم، وربما انتشرت عندهم عوائد السوء والتظاهر بالفواحش قولاً وعملاً، وأن البدو وإن كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لا في الترف ولا في شيء من أسباب الشهوات واللذات ودواعيها، فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقل بكثير، فهم أقرب إلى الفطرة الأولى، وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات.

٣- ومنها أن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من أهل الحضرة، وذلك أن أهل الحضرة ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة، وانغمسوا في النعيم والترف، ووكلوا أمرهم في المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم، واستناموا إلى الأسوار التي تحوطهم، والحرز الذي يحول دونهم، فلا تهيجهم هيعة، ولا ينفّر لهم صيد، فهم قارون آمنون قد ألقوا السلاح، وتوالت على ذلك منهم الأجيال، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبي مثوهم، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة.

وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع وتوحشهم في الضواحي، وبعدهم عن الحامية، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم، لا يكلونها إلى سواهم، ولا يثقون فيها بغيرهم، فهم دائماً يحملون السلاح، ويتلفتون عن كل جانب في الطرق، ويتجافون عن الهجوع إلا غراراً في المجالس وعلى الرحال وفوق الأقتاب، ويتوجسون للنبات والهيعات، ويتفردون في القفر والبيداء، مدلين بأسهم، واثقين بأنفسهم، وقد صار لهم البأس خلقاً، والشجاعة سجية، يرجعون إليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ، وأهل الحضرة متى

خالطوهم في البادية أو صاحبوهم في السَّفَرِ فهم عيالٌ عليهم، لا يملكون معهم شيئاً من أمرِ أنفسهم وذلك مشاهدٌ بالعيانِ حتَّى في معرفةِ النواحي والجهات ومواردِ المياه ومشارِعِ السبلِ .

٤- ومنها أن معاناة أهلِ الحَضَرِ للأحكامِ مُفسدةٌ للباسِ فيهم ذاهبةٌ بالمنعةِ منهم، وذلك أنه ليس كلُّ أحدٍ مالِكاً أمرَ نفسه، إذ إن الرؤساء والأمرء المالكين لأمرِ الناسِ قليلٌ بالنسبةِ إلى غيرهم، فمن الغالبِ أن يكونَ الإنسانُ في ملكةِ غيره، ولا بُدَّ، فإن كانت الملكةُ رفيقةً وعادلةً لا يعانى منها حكم ولا منع وصدٌّ كان الناسُ من تحت يدها مُدلين بما في أنفسهم من شجاعةٍ أو جبنٍ أو واثقين بعدمِ الوازعِ حتَّى صارَ لهم الإدلالُ جبلةً لا يعرفون سواها، وأما إذا كانت الملكةُ وأحكامُها بالقهرِ والسطوةِ والإخافة فتكسر حينئذٍ من سورةِ بأسهم، وتذهب المنعةُ عنهم لما يكون من التكاسُلِ في النفوسِ المضطهدةِ .

٥- ومنها أن سَكْنَى البادية لا تكونُ إلا للقبائلِ ذوي العصبيةِ، وذلك أن أهلَ المَدَنِ والأمصاري تقوم الدولةُ عندهم والحكامُ بدفعِ العدوانِ الذي قد يكون من بعضهم، وتمنعُ أن يعتدي بعضهم على بعضٍ، فهم مكبوحون بحكمةِ القهرِ والسلطانِ عن التظالمِ، وأما العدوانِ الذي من خارجِ المدينة فيدفعه سياجُ الأسوارِ عند العَقْلَةِ أو الغرَّةِ ليلاً أو العَجْزِ عن المقاومةِ نهاراً، أو يدفعه ازديادُ الحاميةِ من أعوانِ الدولةِ عند الاستعدادِ والمقاومةِ، وأما أحياءُ البدوِ فيزعُ بعضهم عن بعضِ مشايخهم وكبرائهم، بما توفَّرَ في نفوسِ الكافةِ لهم من الوقارِ والتجَلَّةِ والهيبةِ، وأما حلُّهم فإنما يذودُ عنها من كان خارجِ حاميةِ الحي من أنجادهم وفتيانهم المعروفين بالشجاعةِ فيهم، ولذلك لا يصدقُ دفاعُهم وزيادتهم إلا إذا كانوا عصبيةً وأهلَ نَسَبٍ واحدٍ، لأنهم بذلك تشتدُّ شوكتهم ويخشى جانبهم، إلى غير ذلك من الفروقِ التي أفاض بذكرها في مقدمته والتي لا مجالَ لذكرها هنا .

وأهمُّ ما يمتازُ به البدويُّ أن نَسَبَهُ صريحٌ لم يدخله اختلاطٌ، وذلك لتعمقه في الصحراءِ في حياةٍ لا تُغري أحداً بها ولا تجلبُ الأنظارَ إليها بل إنها مُخيفةٌ لا يستطيعُ الروادُ أن يأملوا في السلامةِ فيها إن اقتحموها ولذلك بقي العنصرُ البدويُّ سليمِ النسبِ، كما حدَّثَ في مُضَرٍّ من قريشٍ وكنانةً وثقيفٍ وهذيلٍ وغيرها^(١) .

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٩ .

وذكر الدكتور أحمد شلبي أنه كان من نتيجة صفات البادية وصفات البدو أن أصبح قلب الجزيرة مجهولاً، إذ إنه لم يجذب إليه الرحالة، ولم يستطع أهل الحضر أن يجازفوا بدخول هذا المجهول، ولم تزل البادية كذلك إلى أن أتاحت لها الأقدار بعد ظهور محمد ﷺ، أن يقص أخبارها من نرح عنها من أهلها، وأن يقف العالم على كثير مما كان من قبل ذلك في أتم الجهل به، ويرى أنه كان من نتيجة صفات البادية أيضاً أن نجت الجزيرة العربية من الاستعمار فليس في الصحراء القاحلة ما كان يجذب أنظار المستعمرين من الفرس أو الروم، الذين كانوا يبحثون عن الصيد السمين، كما يبحث البدو عن مواطن العشب^(١).

وكان أكثر العرب يؤثرون سُكنى البادية ويفضّلونها على غيرها، وذكر الألووسي^(٢) أنه لما كان سُكنى البادية يقتضي صيانة العز والشرف رجحها غالب العرب على الحضر، وكثر حنينهم إليها، وذكر وحشها وطيرها ورياضها ونباتها وشجرها وأغوارها وأنجادها ورياحها ومياهها، وكثيراً ما تغنى الشعراء بالبادية، وافتخروا بسكناها، فهذا القطامي^(٣) يفتخر بسكنى البادية. ويقول: إن كل ما أعجبك من رجال الحضر فهو أكثر عندنا منه عندهم وإن كنا أهل بادية، وإن أهل الحضر إذا فتنوا باقتناء الحمير وربطها فإننا لا نرضى إلا بما عندنا من الرماح التي تسلب النفوس والخيل الحسان، والتي تعيننا على دفع الأعداء فيقول:

وَمَنْ تَكُنِ الْحِضَارَةُ أَعْجَبَتْهُ فَأَيُّ رَجَالِ بَادِيَةٍ تَرَانَا
وَمَنْ رَبَطَ الْجَحَاشَ فَإِنَّ فِينَا قَنَا سُلْبًا وَأَفْرَاسًا حَسَانًا^(٤)

وقد أفاض المسعودي^(٤) في الكشف عن جماع إثارهم اختيار الصحراء وتفضيلهم سُكنى البوادي. فذكر أن العرب رأّت أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بالعز وأليق بذي الأنفة، وقالوا: نكون مُحكِّمين في الأرض نسكن حيث نشاء، أصلح من غيره. قال: وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركّب الله

(١) التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية د. أحمد شلبي ج ١ ص ٧٩.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ج ٣ ص ٤٢٥.

(٣) القطامي لقب غلب عليه واسمه عمير بن شبيب، وهو شاعر إسلامي مقلد.

(٤) بلوغ الأرب للألوسي ج ٣ ص ٤٢٦.

(٥) مروج الذهب ٢/١٢٠.

فيهم من سمو الأخطار ونيل الهمم والأقدار، وشدة الأنفة والحمية من المعرفة والهرب من العار، بدأت التفكير في المنازل والتقدير للمواطن، فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها معرفة ونقصاً، ومنهم من قال: إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام وتلحقها الآفات، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح، إذ الهواء ربما قوي فأضر بأجسام سكانه وأحال أمزجة قطانه. ومنهم من قال: إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف في الأرض ومقطعة عن الجولان، وتقييد للهمم، وحبس لها في الغرائز من المسابقة إلى الشرف، ولا خير في اللبث على هذه الحالة، وقالوا: إن الأبنية والأطلال تحصر الغذاء، وتمنع اتساع الهواء، وتسد سروحته على المرور وقذاه عن السلول، فسكنوا البر الأفيح الذي لا يخافون فيه من حصر ولا من منزلة ضر، هذا مع ارتفاع الأقداء، وسماحة الأهواء، واعتزال البواء، وتهذيب الأحلام في هذه المواطن، ونقاء القرائح في التنقل في المساكن، وصحة الأمزجة، وقوة الفطنة، وصفاء الألوان، وصيانة الأجسام، فإن العقول والآراء، تتوالد من حيث تولد الهواء، وطبع الهواء الفضاء، وفي هذا أمن من العاهات والأسقام، والعلل والآلام، فأثرت العرب سكنى البوادي، والحلول في البيداء، فهم أقوى الناس همماً، وأشدهم أحلاماً، وأصحهم أجساماً، وأعزهم جواراً، وأحماهم ذماراً، وأفضلهم جواراً، وأجودهم فطناً، لما أكسبهم إياه صفاء الجو، ونقاء الفضاء، لأن الأبدان تحتوي أجزاؤها على متكاثف الأقدار، وعناء الأقدار، بما يرتفع إليه، ويتلاطم في عرصاته، واقفة من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه، ففي أكنافه جميع ما يتصعد إليه، وكذلك تراكيب الأقداء والأدواء والعاهات في أهل المدن، وتركبت في أجسامهم وتضاعفت في أشعارهم وأنثارهم، ففضلت العرب على سائر ما عداها من بوادي الأمم المعترضة، لما ذكر من تخيرها الأماكن، وارتياذ المواطن إلى غير ذلك.

فالمسعودي رد ذلك إلى أنهم رأوا في المدن والأبنية معرفة ونقصاً، لأن التحويط والأبنية حصر عن التصرف في الأرض، ومقطعة عن الجولان والتنقل، وتقييد للهمم، وحبس لما في الغرائز من المسابقة إلى الشرف، بينما البر الأفيح يصون الأجسام، ويهذب الأحلام، وينجيهم من العاهات والأسقام، ومن الحق ما لحظه المسعودي، فيقال: إن بعض خطباء العرب وفد على كسرى أنو شروان، فسأله كسرى عن شأن العرب وسكنائها واختيارها البدو؟ فقال: أيها الملك ملكوا الأرض ولم تملكهم، وأمنوا من التحصين بالأسوار، واعتمدوا على المهفات الباترة والرماح السامرة، فمن ملك

قطعة من الأرض فكأنها كلها له، يردون منها خيارها ويقصدون أوطافها. قال: فأين حظوظهم من الفلك؟ قال: من تحت الفرقدين ورأس الحجر وسعد الجدي مشرفين على الأرض بحسب ذلك! قال: فما رياحها؟ قال: أكثرها النكباء بالليل، والصبا عند انقلاب الشمس، قال: فكم الرياح؟ قال أربع فإذا انحرفت واحدة منهن قيل نكباء، وما بين سهيل إلى طرف بياض الفجر جنوب، وما بإزائها مما يستقبلهما من المغرب شمال، وما جاء من وراء الكعبة فهي دبور، وما جاء من قبل ذلك فهي صبا، قال: فما أكثر غذائهم؟ قال: اللحم واللبن والنبيد والتمر، قال: فما خلائقهم؟ قال: العز والشرف والمكارم وقري الضيف، وإذمار الجار، وإجارة الخائف، وأداء الحمالات^(١)، وبذل المهج في المكرمات، وهم سراة الليل، وليوث القيل، وعمار البر وأنس القفر، ألقوا القناعة وسبقوا الضراعة، لهم الأخذ بالثأر، والأنفة من العار، والحماية للذمار! قال كسرى: لقد وصفت هذا الجيل كرماً ونبلاً، وما أولانا بإنجاح ذلك فيهم!^(٢)

ومن هنا لا عجب أن يألف العرب البادية إلفاً عظيماً، وأن ينزعوا إليها ويحنوا إلى أيامها ولياليها، إذا أجبرتهم الظروف القاسية على مغادرتها أو البعد عنها، أو النأي عن حيوانها وطيرها وريحها، حتى ليستد الصراع في نفوسهم ويكاد يعصف بهم، وقد ظلوا على ذلك يحنون إلى صحاريهم وبواديهم حتى في ظل الإسلام، ولا بدع في ذلك فقد نشؤوا في البادية وأحبوها وفتنوا بها وعاشوا فيها.

وهذه ميسون بنت بحدل الكلابية لم تفتنها قصور معاوية في الشام، بما فيها من ألوان النعيم والترف والبذخ، فكانت تكثر من الحنين إلى البادية مسقط رأسها، وتكثر الشوق إلى حياة البادية بما فيها من مزعجات، فاستمع إليها ذات يوم وهي تنشد هذه الأبيات:

أحبُّ إليَّ من قِصرٍ مُنِيفٍ	لبيتٍ تخفقُ الأرواحُ فيه
أحبُّ إليَّ من لبسِ الشُّفوفِ	ولبسِ عباءةٍ وتقرَّ عيني
أحبُّ إليَّ من أكلِ الرغيفِ	وأكلِ كُسيرةٍ في كسرِ بيتي
أحبُّ إليَّ من نقرِ الدُّفوفِ	وأصواتِ الرياحِ بكلِّ فجٍّ

(١) الحمالة: الدية والغرامة.

(٢) بلوغ الأرب للألوسي ٣/ ٤٣٤.

وكلبٌ يَنْبَحُ الطَّرَاقَ دُونِي أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ قِطِّ أَلُوفِ
 وَبَكَرٌ يَتَّبَعُ الْأَطْعَانَ صَعْبٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَغْلِ زَفُوفِ
 وَخِرْقٌ مِنْ بَنِي عَمِّي نَحِيفٌ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ عِلْجِ عَلِيفِ (١)

فلما سمع معاوية الأبيات قال لها: ما رَضِيتُ ابنةً بَحْدَلٍ حَتَّى جَعَلْتَنِي عِلْجاً عَلِيفاً؟!

وهذا أمية بن أبي عائذ الهذلي، وهو في العصر الأموي كذلك - يتشوق إلى البادية، وذلك بعد أن طال مقامه بمصر عند عبد العزيز بن مروان، الذي كان يأنس به، ويصله بصلات سنية - فنراه يتشوق إلى البادية وإلى أهله، فيقول لعبد العزيز:

مَتَى رَاكِبٌ مِنْ أَهْلِ مِصْرَ وَأَهْلُهُ بِمَكَّةَ مِنْ مِصْرَ الْعَشِيَّةَ رَاجِعُ
 بَلْ إِنَّهَا قَدْ تَقَطَّعَ الْخَرْقَ ضَمَّرُ تُبَارِي السَّرَى وَالْمُعْسِفُونَ الزَّعَاذِعُ
 مَتَى مَا تُجِزُّهَا يَابْنَ مِرْوَانَ تَعْتَرِفُ بِلَادَ سُلَيْمَى وَهِيَ خَوْصَاءُ ظَالِعُ
 وَبَاتَتْ تَوْمُ الدَّارِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ لَتَخْرُجَ وَاسْتَدَّتْ عَلَيْهَا الْمِصَارِعُ
 فَلَمَّا رَأَتْ أَنْ لَا خُرُوجَ وَإِنَّمَا لَهَا مِنْ هَوَاهَا مَا تُجِنُّ الْأَضَالِعُ
 تَمَطَّتْ بِمَجْدُولٍ سَبَطَرٍ فَطَالَعَتْ وَمَاذَا مِنَ اللَّوْحِ الْيَمَانِيِّ تَطَالِعُ (٢)

فقال له عبد العزيز: اشتقت والله إلى أهلك يا أمية، فقال: نعم والله أيها الأمير فوصله وأذن له.

وهذيل قبيلة بادية كغيرها من العرب العدنانيين، وقد ذكر السويدي أن مواطن بني عدنان مختصة بنجد وأن كلها بادية لم تكن تسكن الحضر، إلا قريشاً بمكة، ثم افترق بنو عدنان في تهامة والحجاز (٣)، وإذا كان المشهور عن هذيل أنها قبيلة بادية، فقد كان لها أيضاً منازل في بعض القرى - كما سبق - وكثيراً ما نجد قبيلة واحدة تحيا

(١) المرجع السابق ٣: ٤٢٧ والخرق: الفتى الحسن الكريم الخليفة، والعلاج: الرجل الضخم.

(٢) الأغاني ج٢٣ ص ١٦٥، الخرق: الأرض الواسعة، والزعازع: من زعزع، أي: شديد، وزعزع الإبل: حثها، والمعسفون: من أعسف الرجل: سار بالليل خبط عشواء، المجدول: أراد به رأسها أو ظهرها، السبطر: الطويل، اللوح: ما لاح من النجوم التي تطلع من نحو اليمين.

(٣) سبائك الذهب في معرفة قبائل العرب للسويدي ص ١٩.

حياتين مختلفتين، وتعيشُ بين البادية والحَضْر، أو أن قسماً منها يتحضر ويسكن المدْر، على حين نجدُ قسماً آخر منها بادياً في أهل الوَبْرِ، وقد كان هذا شأن القبيلة العربية في الجاهلية والإسلام معاً^(١). وقد اعتبر الدكتور ناصر الدين الأسد هُدَيْلاً وجُهَيْنَةَ ونَهْدًا وغيرها من القبائل التي كانت تحيا حياتين مختلفتين، فهُدَيْل كانت أقسام منها تسكنُ ضَرَعَاءَ، وهي قرية بها قصورٌ ومنبرٌ وحصون، وقسم آخر يسكن في قريتي رُهَاط والحُدَيْبِيَّة، وقسم يسكن في مَرَّ الظهران، وهي قرية في واديها عيونٌ كثيرة، ونخيلٌ وجُمُيزٌ^(٢).

ويرى الدكتور ناصر الدين الأسد أن المقصود بالبادية هو ظاهر القرية أو ضاحيتها وما أحاط بها، وقد سَرَدَ نصوصاً واستدلَّ بها على ذلك. وذكر أن كثيراً من القبائل كانوا يقطنون في هذه البوادي قريبين من الحواضر، مُطيفين بها متصلين بسكانها، وهم غير تلك القبائل الموغلة في الصحراء، الضاربة في الفيافي، البعيدة عن العُمران، الذين قَسَتْ قلوبُهم، وغلظتْ أكبادُهم، فوصفهم القرآن الكريم بشدة الكفر والنفاق، وهؤلاء هم الأعراب، فالبدو غير الأعراب، لأنَّ البدو ينزلون قريباً من المدن، ويتصلون بأهلها، ويتأثرون بهم، ولا يُبعدون عنهم، أما الحَضْر فهم الذين نَزَلُوا بالمدن والقُرى، واستقروا فيها لا يتحولون عنها^(٣).

وينبغي أن نلاحظ أن هذه الاختلافات لا تزال قائمة في الجزيرة العربية حتى اليوم.

وقد ضَمِنَتِ البادية سلامة اللغة العربية عندما فسدت هذه اللغة في مواطن الحَضْر بسبب الاختلاط الذي كان بين العرب وغير العرب، وأصبحت البادية لذلك مدرسة يدخلها من أراد أن يتلقى اللغة الصحيحة والعربية الفصيحة.

واشتهرت قبيلة هُدَيْل بين العرب باللُّسَن والفصاحة، حتى إن العرب كانوا يرسلون أبناءهم إليها، لينهلوا من معينها الثَّجَّاج، وليتزودوا من الشعر والأدب وفصح العربية، فرُوي أن الشافعي رضي الله عنه أقام عند هُدَيْل مدةً طويلةً، فحفظ أشعارها

(١) مصادر الشعر الجاهلي د. ناصر الدين الأسد ص ٦.

(٢) المرجع السابق ص ٧.

(٣) انظر تفصيل ذلك في مصادر الشعر الجاهلي ص ٥-٩.

وتذوق أساليبها، يقول بروكلمان: "وقدم الشافعيُّ إلى مكَّة وهو طفلٌ - قيل إنه كان حينئذ في السنة الثانية من عمره - وتلقَّى بها تعليمه، وبدأ فيها سماعَ الحديث والأخبار، فلما بلغت سنُّه نحو سبع عشرة سنة رَحَلَ إلى البادية وبقِيَ بها بين أكناف بني هذيل، حتى بلغ نحو عشرين سنة، فأخذ عنهم فصيحَ العربية وروى الشعر والأدب وقد روى عنه الأصمعيُّ أشعارَ هذيلٍ والشَّنْفَرِيَّ في مكَّة" (١).

والمعروفُ عن الشافعيِّ أنه كان عالماً لغوياً أديباً، وأنه كان بحكم عروبته وثقافته اللغوية والأدبية، وبحكم نشأته عند قبيلة هذيل، ودراسته لشعرها، صاحبَ بيانٍ فخمٍ، وتعبيرٍ جزلٍ، وأسلوبٍ رفيعٍ، وعُرفَ عنه كذلك أنه كان إماماً في الحفظِ والرواية، وأن رجالَ الأدب كانوا يأتونه فيقرؤون عليه الشعرَ فيفسره لهم، وذكر الأصمعيُّ أنه قرأ شعرَ هذيلٍ عليه، فقد حدثَ عبد الرحمن ابن أخي الأصمعيِّ قال: قلتَ لعمي: على من قرأتَ شعرَ هذيلٍ؟ قال: على رجلٍ من آلِ المطلبِ يقالُ له ابنُ إدريس (٢).

وقد أُعجبَ الشافعيُّ بأشعارِ هذيلٍ لنشأته في قبائلهم، ورضاهُ عن طبائعهم ولأن هذيلاً - كما يقولُ الشافعيُّ نفسه - كانت أفصحَ العرب، يقولُ الشافعيُّ في حديثه عن نفسه: فبقيتُ فيهم سبع عشرة سنة، أرحلُ برحيلهم، وأنزلُ بنزولهم، فلما رجعتُ إلى مكَّة جعلتُ أنشدُ الأشعارَ، وأذكرُ الآدابَ والأخبارَ وأيامَ العرب (٣).

والحقُّ أن هذيلاً قد اكتسبت هذه الصفة من الفصاحة واللِّسن، واشتهرت بها لأنها قبيلةٌ باديةٌ، ثم لأنها كانت قبيلةً محافظةً، فلم تختلطْ بغيرها كثيراً، فضمنَ ذلك حفظَ لغتها من الفسادِ واللحن، ولذلك أصبحت مرجعَ العلماء في الاستشهاد على فصيحِ العربية.

ولا شكَّ أن الباديةَ منبعُ الشعرِ، ومولدُ البيان، فالأسبابُ الشاعرية تهيأت من نشأة بدوية في الصحراءِ التي تفسحُ الخيالَ، وتُلهبُ العاطفةَ، وتذكي الشعورَ بين قومٍ مفظورين على البلاغة، مفتونين بالفصاحةِ واللِّسن، فكلُّ ذلك يُغذي الملكةَ الفطريةَ،

(١) تاريخ الأدب العربي لبروكلمان ٣: ٢٩٢.

(٢) المزهَر للسيوطي ١/ ١٦٠.

(٣) معجم الأدباء ج١٧ ص ٢٨٤.

ويفتق أكمامَ الشاعرية، يقول الأستاذ أحمد أمين: "إن البادية هي منبع الشعر وهي التي تحرك العربي، وتغذي خياله، وتُنطقُ لسانه، يشعر فيها باستقلاله وعظمتها، لا ترهقه سلطةٌ، ولا يقيدُه قانونٌ، تنبسطُ أمامه رقعةُ الأرض فينعم بمنظرها، فيجيشُ صدره، وينطقُ بالشعر لسانه، فإذا تحضّر ذلٌّ، وعقلتُ من لسانه قوانينُ المدنيّةِ وتقاليدهُ الحضارةِ، وحرّمَ منظرَ الصحراءِ الجميلِ، فحرّمَ الشعرَ الجميلَ" (١).

وكان البدويُّ صاحبَ ذكاءٍ فطريٍّ، وملاحظةٍ مستفيضةٍ، فليس غريباً أن يتنبّه البدويُّ بذكائه إلى أن المطرَ راجعٌ إلى الأرضِ، أي: عائدٌ إليها، وقد صعدَ إلى السماءِ منها (٢) فلم يخفَ ذلك على العربِ وخاصةً شعراءهم، فهذا أبو ذؤيب الهذليُّ يقول:

سقى أم عمرو كل آخر ليلةٍ حناتم سود ماؤهن نجيجُ
شربن بماء البحر ثم ترفعتُ متى لجج خضر لهن نسيجُ

فأبو ذؤيب يدعو لأم عمرو بالري الذي تحمله إليها سحائبُ سودٍ غزيرةِ الماء، شربتُ من لجج البحر حتى ارتوت، ثم ارتفعتُ إلى السماء فأعادت ما شربته من البحر غيثاً إلى الأرضِ ترتوي منه أم عمرو، ومن حولها الإنسانُ والحيوانُ.

وتمتازُ الباديةُ بأنها تفسحُ الخيالَ وتغذيه، وخيالُ البدو خيالٌ بيانيٌّ أو تفسيريٌّ قائمٌ على الاستعارةِ والتشبيهِ والمجازِ وما إليها، وهذا النوعُ طبعيٌّ ما دام الشاعرُ يجدُ في هذه اللغةِ الحقيقيةِ قصوراً عن تصويرِ الشعور (٣) وهو خيالٌ يتخذُ عناصره من البادية، فالرجلُ العظيمُ فحلٌّ أو جبلٌ، والناقةُ في سرعتها كالخمارِ الوحشي، والرجلُ السريعُ كالظليمِ أو الحصانِ، والكريمُ كالبحرِ، والشجاعُ كالأسدِ والكثرةُ كالخصيِّ والرملُ، والمرأةُ كالغزاةِ والبقرةُ الوحشيةُ. وهكذا يتخذُ خيالهم موضوعاته الوصفية، وعناصره الخيالية من الصحراءِ والسماءِ والكواكبِ والحيوانِ. فالخيالُ يعتمدُ على ما يحسه الشاعرُ أو يراه في البادية.

ولا شك أن الخيالَ يدلُّ على قُدرةٍ فائقةٍ لدى الشاعرِ، ويدلُّ كذلك على العبقريةِ والذكاءِ، فالاستعاراتُ والتشبيهاتُ والأمثالُ والكنائياتُ هي أجنحةُ الخيالِ في التعبيرِ والتصويرِ، ومن المؤكد أن: "الخيالَ ملكةٌ خصبةٌ تقدرُ على تخيلِ الأشياءِ وتصويرِ

(١) فجر الإسلام للأستاذ أحمد أمين ص ٢٢.

(٢) مع القرآن للأستاذ الباقوري ص ٢٧٣.

(٣) محاضرات في الأدب الجاهلي د. سليمان حسن ربيع ص ٦٤.

العواطف والآراء تخيلاً وتصويراً يوضح لنا نواحيها الغامضة، ويعرض علينا ما فيها من أسباب الروعة والجمال عرضاً مؤثراً تحسبه حقيقة أو كالحقيقة الملموسة، يأخذ الشاعر الأشياء المألوفة التي يراها الناس جميعاً، ثم يُعملُ فيها خياله فيخرجها في صورة جديدة لم نكن نتوهمها، فليس الخيال دائماً مجافاةً للحقائق وبعداً عن المألوف، وقدرة على الإغراب والإتيان بما لا يكون، بل المهمُّ أنه مرآة تنطبع فيها الصور فيعكسها وقد صفاها من كلِّ شائبة، وأخرجها إخراجاً جديداً، والخيالُ خادمٌ للحقيقة، وغايتهُ تصويرٌ ما حُجبَ عنا من حقائق الوجود^(١)، ولم يترك الهذليون مظهراً من مظاهر الحياة في الصحراء وقع عليه بصرهم إلا سجّلوه في أشعارهم حتى الأشياء الصغيرة التي قد تبدو قليلة الأهمية لا تلتفت النظر، ولا تستحق التسجيل، على نحو ما نرى في هذه الأبيات وهي للمتنخل يتحدث فيها عن الماء الذي وردّه وما كان حوله من البعوض، يقول فيها:

وَعَى رَكْبٍ، أَمِيمٍ، ذَوِي هِيَاطٍ (٢)	كَأَنَّ وَغَى الخُمُوشِ بِجَانِبِيهِ
قُبَيْلِ الصَّبْحِ آثَارُ السَّيَاطِ	كَأَنَّ مَزَاحِفَ الحَيَاتِ فِيهِ
وَأَبْيَضُ صَارِمٍ ذَكَرَ إِبَاطِي (٣)	شَرِبْتُ بِجَمِّهِ وَصَدَرْتُ عَنْهُ

فلم يرق للشاعر أن يشبه مورد الماء وما حوله من البعوض إلا بالركب أو القافلة وما يصحبها من الصياح والجلبة والمجادلة، فهو تشبيه من صميم البادية، ثم علينا أن نلاحظ ما في البيت الثاني من جمال، فالشاعر يشبه آثار زحف الحيات في ذلك

(١) قصة الأدب في الحجاز د. محمد عبد المنعم خفاجي ص ٣٥٣.

(٢) ورواية اللسان - خمش وزيط ووغى: «ذوى زياط» وعقب عليها ابن برى بأن صحتها في شعر هذيل: «أولى هياط» وهي رواية تاج العروس أيضاً. وروى الأزهري البيت هكذا:

كان وغي الخموش بجانبيه مآتم يلتدمن على قتيل

وبرواية اللسان ورد في الحيوان (١٢٣: ٥) مقاييس اللغة (٢: ٢١٩) وتوجد الأبيات برواياتها في شرح الحماسة والتعليق عليه - راجع في ذلك كله كتاب التهذيب ٧: ٩٥، ٩٦ بتحقيق الدكتور عبد السلام سرحان: (هامش).

(٣) كتاب شرح أشعار الهذليين ج ٣ ص ١٢٧٢. الخموش: البعوض، الهياط: الصياح والمجادلة، الوغى: صوت الحرب، جمه: ما اجتمع في البئر من الماء، والجمه: معظم الماء، إباطي: يقول قد تأبط هذا السيف.

المكان بالآثار الباقية نتيجة الضرب بالسياط، وقد ذكر السُّكْرِيُّ في هذا البيت "أنه بيتُ القصيد وأنه أحسن ما وصف" (١).

وهذا أمية بن أبي عائد يشبه الليل بإبل عليها أخبية سود، فيقول: كأن بقايا الليل بُخْتُ جُلُنَّ مَطَالٌ سُدًّا من المَطَالُ التي تَتَّخِذُهَا الأعرابُ، فنراه يقول:

وَلَيْلًا كَأَنَّ أَفْسَانِيْنَهُ صِرَاصِرُ جُلُنَّ دُهُمَ المَطَالِي (٢)

ونراه قد وصفوا البحرَ والتيارَ، إلا أن تشبيهاتهم مستمدة من صورِ البادية فهذا ابنُ بَرَّاقِ الهذليُّ، يصف البحرَ والتيارَ، ويستخلص عناصرَ التشبيه من البادية فيشبهه قواذفَ التياراتِ المتلاحقة بالنعاجِ اللائي يترمين إلى جانبِ نعاجٍ وهكذا فيقول:

أَلَا هَلْ لِلْهُمُومِ مِنْ أَنْفِرَاجِ وَهَلْ أَنَا مِنْ رُكُوبِ البَحْرِ نَاجِي

أَكُلُّ عَشِيَّةَ زَوْرَاءُ تَهْوَى بِنَا فِي مُظْلِمِ الغَمَرَاتِ دَاجِي

يَشْقُ المَاءُ كَلِكُلْهُمَا مُلِحًّا عَلَى تَبَجِّ مِنَ المَلْحِ الأَجَاجِ

كَأَنَّ قَوَازِفَ التِيَارِ مِنْهُ نِعَاجٌ يَرْتَعِينِ إِلَى نِعَاجِ (٣)

وكانت حياةُ البادية تستلزمُ الاعتمادَ على النفسِ، وتقتضي الشجاعةَ والبطولةَ والإقدامَ، فهي حياةٌ كُلُّهَا فروسيةٌ، فلا يمكنُ لأحدهم أن يخرجَ وهو أعزلٌ من السلاحِ وبعبارةٍ أدقَّ كانوا لا يقضون أوقاتهم بغيرِ سلاحٍ، فلذلك نجدُ ذكرَ السلاحِ في الكثيرِ من أشعارهم، حتى في الرثاءِ، فهذا أبو خِرَاشٍ يرثي بعضَ أخوته، ونراه في رثائه ينكرُ أن يكونوا عَزُلًا من السلاحِ، فكان من العارِ عندهم أن يكونَ العربيُّ في البادية بغيرِ سلاحٍ، فنراه يقول:

فَقَدْتُ بِنِي لُبْنَى فَلَمَّا فَقدَتْهُمْ صَبَرْتُ وَلَمْ أَقْطَعْ عَلَيْهِمُ أَبَاجِلِي

حِسانُ الوجوهِ طَيِّبٌ حُجْزَاتُهُمْ كَرِيمٌ نَشاَهُمْ غَيْرُ لُفٍّ مَعَاذِلِ

(١) المرجع السابق الصفحة ١٢٧٣.

(٢) المرجع نفسه ٥١٢/٢. أفانينه: نواحيه، صراصر: إبل من الشام يقال لها «الصَّرْصَرَانِيَّةُ».

(٣) المرجع نفسه ج٢ ص ٨٧٨، زوراء: سفينة لأعوجاجها.

رِمَاحٌ مِنَ الْخَطِيئِ زُرُقٌ نِصَالُهَا حَدَادٌ أَعَالِيهَا شِدَادُ الْأَسَافِلِ (١)

وقد علمتهم البادية الصبرَ وتحملَ الشدائد، لأنها حياةٌ لا بُدَّ معها من الاعتماد على النفس، ولا بُدَّ معها من تحملِ المشاقِّ في جميع مجالات الحياة، فهذا أبو خراش - الذي أقفر من الزاد يوماً فجاجاً جوعاً شديداً - مرَّ بامرأةٍ من هذيلٍ، فأمرت له بطعامٍ فما كان منه إلا أن ذهب وترك الطعام، لأنه لما شمَّ رائحةَ الطعامِ سألَ لعابه، وقرقرَ بطنه، فحرمَ نفسه من ذلك الطعام. روى صاحبُ الأغاني في هذه الحادثة: أن أبا خراش الهذلي قد أقفر من الزاد أياماً، ثم مرَّ بامرأةٍ من هذيلٍ، وكانت جزلةً شريفةً، فأمرت له بشاة فذبحت وشويت، فلما وجدَ بطنه ريحَ الطعامِ قرقرَ، فضربَ بيده على بطنه وقال: إنك لتقرقر لرائحة الطعام والله لا طعمت منه شيئاً ثم قال: يا ربة البيت، هل عندك شيء من صبرٍ أو مُرٍّ؟ قالت: تصنع به ماذا؟ قال: أريده، فأنته منه بشيء فاقتمحه (٢) ثم أهوى إلى بعيه فركبه، فناشدته المرأة فأبى، فقالت له: يا هذا، هل رأيت بأساً أو أنكرت شيئاً؟ قال: لا والله، ثم مضى وأنشأ يقول:

وإني لأثوي الجوعَ حتى يملني	فأحيا ولم تدنس ثيابي ولا جرمي
وأصطح الماء القراح فأكتفي	إذا الزاد أضحى للمزجج ذا طعم
أردُّ شجاع البطن قد تعلمينه	وأثر غيري من عيالك بالطعم
مخافة أن أحيا برغم وذلة	فللموت خير من حياة على رغم (٣)

فنرى أنه لم يسمح لنفسه أن يقرقر بطنه من الجوع، ولعله كان يرى أن ذلك نوعٌ من الخفة، وأنه يتنافى مع الرجولة والصبر، وهكذا كانت حياتهم في البادية كلها خشونةً، وكلها صبرٌ واحتمالٌ لسنوف الشدائد، والشدائد محكُّ الرجال.

والحق أنهم كانوا في البادية يواجهون الصعاب والمهالك والضيق والضنك. يقول الجاحظ: "وقد يصيب القوم في باديتهم ومواقعهم من الجهد ما لم يُسمع به في أمةٍ

(١) ديوان الهذليين ٢/ ١٢٣. بنو لُبني: إخوته، وضربهم مثلاً، والأبجل: عرق غليظ في الرجل. طيب حجراتهم، أي: هم أعفاء. الألف: الثقل، والأعزل: الذي لا سلاح معه. زرق: بيض، والنصال: الأسنّة.

(٢) اقتمحه: سفه أو أخذه في راحته فلطمه.

(٣) الأغاني ٢١-٢٣٨. كتاب شرح أشعار الهذليين ج٣ ص ١١٩٩-١٢٠٠.

من الأمم، ولا في ناحية من النواحي . وإنَّ أحدَهم ليجوعُ حتى يَشُدَّ على بطنه الحجارة، وحتى تعتصم بشدَّةِ مَعَاقِدِ الإزار، وَيَنْزِعَ عِمَامَتَهُ مِنْ رَأْسِهِ فيشدُّ بها بطنه (١).

وتحدَّثَ الشعراءُ الهذليون كثيراً عن البادية، واعتنوا بها عنايةً تامَّةً، فكان المنظرُ الصحراويُّ مصدرًا خصبًا للوحي والإلهام، وقد عشقوا الصحراءَ بما فيها من مناظرٍ جميلة فاتنة، وبما لها من أسرارٍ وأعاجيب، فمنظرُ الهاجرةِ المحرقةِ ومنظرُ الليلِ الموحشِ، ثم مناظرُ صنوفِ الحيواناتِ في البادية، كلُّ ذلك جَدَّبَهُمْ وشَدَّهُمْ إلى الوصفِ والتحدُّثِ والتسجيلِ في أشعارهم الخالدة .

والحقُّ أنَّ مَنْ يتتبع وصفَ الصحراءِ والحيوانِ في أشعارهم يُخيِّلُ إليه أنهم لم يتركوا مظهرًا من مظاهر الحياة في الصحراءِ وقع عليه بصرهم إلا سجَّلوه في أشعارهم حتى الأشياءِ الصغيرة التي قد تبدو قليلة الأهمية، أو التي لا تلفتُ النظرَ ولا تستحقُّ التسجيلَ فقد سجَّلوها واهتموا بها في صورهم الشعرية ولوحاتهم الفنية .

وقد عشقوا الصحراءَ وأحبَّوها، وفتنوا بها، وكان إحساسهم بها عميقاً، فعاشوا فيها مُدُنِّينَ بها ، مشغوفين بحبِّها، يفتنهم سحرها الغامضُ، وسرُّها المجهولُ، وسجَّلوا في قصائدهم وأشعارهم أروعَ صورةٍ للبادية وفيافيها، وعاشتِ الصحراءُ في أعماقهم محبوبَةً أسرةً، وقصيدةً خالدةً، ولذلك انتشرتْ لوحاتُ الصحراءِ في شعرهم انتشاراً واسعاً، وتعدَّدتْ مناظرُها وأوضاعها تعدداً لا نظيرَ له عند غيرهم، وهي لوحاتٌ لا تصوِّرُ الباديةَ فحسب، ولكنها تصوِّرُ أيضاً تَعَشُّقَهُمْ لها وافتتانهم بها، فهم لا يتحدثون عنها حديثاً من يريد وصفها، وتسجيلَ مشاهدتها، ولكن حديثاً من يريد أن يُفرِّغَ طاقةً ضخمةً من العواطف التي يحملها لها في نفسه، عواطفِ الحُبِّ والفتنةِ والهيامِ والغرامِ .

ولم يقفَ الهذليون عند مظاهر الصحراءِ الصَّامِتةِ وحدِّها، ولكنهم تجاوزوها إلى مظاهرها الحيَّةِ ، فوصفوا الإبلَ وصفاً جميلاً، ووقفوا طويلاً عند حيوانها الشاردِ في أعماقها، والساري على رمالها، كالطباءِ وصغارها، وقطعانِ الحُمُرِ والبقرِ الوحشيَّةِ، والذئابِ والثعالبِ والضباعِ، كما صَوَّروا - في أدبهم - النِّعامَ والحمامَ والنسورَ والعقبانَ، ثم الحياتِ والزواحفَ الأخرى، مما يدلُّ على دربتهم الواسعةِ، ومهارتهم

(١) البخلاء للجاحظ ص ٢١٩ - ط ٤ - دار المعارف - تحقيق الحاجري .

الفائقة، وخبرتهم الدقيقة بحياة الصحراء، وهي خبرة اكتسبوها من حياتهم فيها من ناحية، ثم من رحلاتهم المتعددة في أعماقها، وتنقلاتهم بين أفنائها من ناحية أخرى .

ومعروف أن الرعي كان قائماً في البوادي، وكان يأخذ به كثير من القبائل ومنها هذيل، وكانت طبيعة البادية تقتضي هذا النوع من الحياة، وخاصة في تلك الأماكن التي يتعدّر فيها الأخذ بأي نشاط اقتصادي سواه، وكانت ثروة البدوي تقدّر في امتلاك القطعان، وخاصة الإبل التي كانت تحتل المركز الأول وهي مقياس غناهم، فكانت تحدّد مركز الفرد في مجتمعه، ومكانته عند قبيلته وبني جلدته، وقد ذكر الأصمعي أنهم كانوا أصحاب جمال^(١). وعلى طول ديوانهم الضخم تلقانا صوراً للإبل، لا يمكن أن تكون صادرة إلا عن عاطفة حب تملأ عليهم قلوبهم، فهذا أبو ذؤيب يتناول النوق في شعره كثيراً، فنراه يذكر النوق ويفتخر بنحرها إذا أمحل الناس فيقول:

فإنك لو ساءلت عناً فتخبري إذا البزل راحت لا تدرّ عشارها
لأنبتت أنا نجتدي الحمد إنما تكلفه من النفوس خيارها
لنا صرم ينحرن في كل شتوة إذا ما سماء الناس قلّ قطارها^(٢)

وفي موضع آخر يشبه الناقة بالصخرة في صلابتها وقوة بأسها، ويصفها بأنها مُشمّرة طويلة القوائم مما يدل على سرعتها فيقول:

فما فضلة من أذرعات هوت بها مذكرة عنس كهادية الضحل
سلافة راح ضمنتها إداوة مقبرة ردف لمؤخرة الرحل
تزودها من أهل بصرى وغزة على جسرة مرفوعة الذيل والكفل
فوافي بها عُسْفان ثم أتى بها مجنة تصفو في القلال ولا تغلي
وراح بهامن ذي المجاز عشيّة يبادر أولى السابقات إلى الحبل

(١) ديوان الهذليين ١/ ١٧.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ج ١ ص ٧٧. العشار: واحداً عشاراً وهي التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها. لا تدرّ عشارها، أي: من شدة البرد، نجتدي: نطلب، أي: نتخذ الحمد جداً وفضلاً. الصرمة من الإبل: القطعة ما بين العشرة إلى العشرين.

فَجِئْنَا وَجَاءَتْ بَيْنَهُنَّ وَإِنَّهُ
فَجَاءَ بِهَا كَيْمَا يُوقِي حَجَّهُ
وَهَذَا مُلَيِّحُ بِنِ الْحَكَمِ الْقَرْدِيِّ يَصِفُ الْإِبِلَ وَصِفًا جَمِيلًا، وَيَشْبِهُهَا بِالسُّفْنِ فَيَقُولُ:

إِنَّ الْخَلِيظَ الَّذِي مَا دُونَهُ أَحَدٌ
لَمْ أَخْشَ بَيْنَهُمْ وَالِدَارَ إِنْ جَمَعْتُ
حَتَّى رَأَيْتَهُمْ تَعْلُو رِحَالَهُمْ
سُدْسًا وَبُزْلًا إِذَا مَا قَامَ رَاحِلُهَا
فَقَلَّ مَا لَبَثُوا حَتَّى اسْتَمَرَّ بِهِمْ
تُحْدَى بِهِمْ رَاجِفَاتُ الِهَمِّ مُجْفَرَةٌ
مُصْطَفَّةٌ كَاصْطِفَافِ الْفُلِّكَ لَا لُجْنٌ
كَأَنَّ مَا فَوْقَهَا مِمَّا عَلَيْنَ بِهِ
فَالْعَيْرُ تَحْمَلُ أَشْوَاقًا مُضْعَفَةٌ
وَقَلْتُ وَهِيَ بَعِيدٌ وَاسْتَمَرَّ بِهِمْ
بَحْرِيَّةٌ فَوْقَ غَمْرِ الْمَاءِ غَادِيَّةٌ

ثم يصف سيرها واتزانها فيه، وأنها في سيرها تلزم الموكب، ثم يشبه سيرها بمشي

النعامة لخفتها فيقول:

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ١/٩٣. مذكرة: ناقة خلقتُها خلقةً الفحل، عنس: شديدة صلبة، الفضلة: فضلة فضلت من خمير عند تاجرها، هوت بها، أي: سارت. هادية الضحل: صخرة تكون في بطن الماء يمر الماء عليها، والضحل: الماء الرقيق، مرفوعة الذيل والكفل، يريد أن ذيلها وكفلها مشرفان ولا ذيل للناقة فالذيل غير مراد هنا وإنما هو مثل، والكفل: كساء يكون على عجز البعير فيركب عليه. جسرة: جسيمة، وافى بها، أي: أتى بها، القلال: الحبة والجرار، الحبل: حبل عرفة، جئن وجاءت، أي: جئن الإبل وجاءت الناقة بين النوق، ذفراها: هو الناتئ في القفا من الأذنين. تزعم: تصيح وتصوت من نشاطها، النكس: الضعيف، الوغل: الذي يدخل على القوم يشربون ولم يدعو.

لا تُسْتَزَادُ وَلَا تُثَنِّي بِرَاكِبِهَا
تَخْدِي إِذَا مَا ظِلَامُ اللَّيْلِ أَمَكْنَهَا
خَدْيِ النَّعَامَةِ رَاحَتٌ وَهِيَ خَائِفَةٌ
إِذَا الْمَطَايَا غَدَاةَ الرَّبْعِ أَتَعَبَهَا
وَأَرْهَقْتَهُنَّ مِنْهَا سِيرَةٌ نَكْظًا
إِذَا تَفَاضَلَتِ الْعَيْدِيَّةُ النَّجْدُ
مِنِ السُّرَى وَفَلَاةٌ شَحْشَحَ جَرْدُ
فَرَقَعَتْ زِقْفَهَا مَشْعُوفَةٌ تَخِدُ
رَمْلٌ تَمُدُّ لَهُ أَعْنَاقَهَا صَعْدُ
تَكَادُ مِنْهَا ذِرَاعُ الْعَنْسِ تَنْقُصِدُ^(١)

ونراه في إحدى قصائده في الغزل، يأخذ في وصف الطريق الذي سار فيه إلى صاحبتة ويتحدث عن الإبل فيقول:

وَمُسْتَحْلِسِ الْأَرْضَى مَخُوفٍ بِهِ الرَّدَى
قَطَعْتُ إِذَا مَا اللَّيْلُ أَدْنَى رِوَاقِهِ
بَعِيدِيَّةٍ كَالْفَحْلِ أَوْ مَاطِلِيَّةٍ
لَجُوجٍ إِذَا اسْتَلْجَجَتْهَا ذَاتِ رَيْعٍ
مِنِ الْخُرْسِ إِلَّا أَنْ تَرُدَّ بُغَامَهَا
بَعِيدِ الْمَدَى لِلْعَيْسِ دَفْنِ الْمَنَاهِلِ
بِمَلْتَمِهِمُ الصَّحْرَاءِ جَوْنِ الْغِيَاظِلِ
لِحُوقِ التَّوَالِي ذَاتِ جِدٍّ وَبَاطِلِ
إِذَا خُودَعَتْ زَهْوُ الْخَرِيْعِ الْخَائِلِ
إِلَى طَيِّ مَشْنِيِّ الْحَصِيرَيْنِ قَافِلِ^(٢)

(١) المرجع نفسه ١٠١٣/٣ مَلْمُومَةٌ: إِبِلٌ سَمَانٌ، النَّيُّ: الشَّحْمُ، اللَّبْدُ: الْوَبْرُ، الشَّبَا: أَرَادَ حِدَّةَ الْأَنْيَابِ، غَرْدٌ: مُصَوِّتٌ، يَرِيدُ أَنَّهَا تَحْصَنَتْ بِصَرِيْفِهَا وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا سَمِعَ صَرِيْفَهَا عَلِمَ أَنَّ الْإِبِلَ قُطِمَ وَالْفَحْلُ يَصْرَفُ قَطْمًا وَالنَّاقَةُ تَصْرَفُ كَلَالًا، مُنْجَرِدٌ: ذَاهِبٌ، عَطَطٌ: شَقٌّ، رَاجِفَاتٌ: مَتَحْرَكَاتُ الرَّؤُوسِ فِي مَسِيرِهَا، مُجْفَرَةٌ: عِظَامُ الْجُنُوبِ، غَلَبٌ: غَلَاظُ الرِّقَابِ، الشَّبْحُ: الْجَنْبُ وَالْقَحْدُ: الْأَسْمَةُ وَاحِدَتَهَا قَحْدَةٌ، اللَّجُونُ: الثَّقِيلَةُ الْبَلِيدَةُ، مَشْعُوفَةٌ: وَالْهَاءُ إِلَى أَوْطَانِهَا وَإِلَى صَوَاحِبِهَا، شُرْدٌ: ذَاهِبَةٌ، آلٌ: سَرَابٌ، يُعْمَمُهُمْ: يَكْسُوهُمْ وَيُلْبِسُهُمْ، الْقَرْقَرُ: الْأَرْضُ الْمَسْتَوِيَّةُ، الْجَرْدُ: الَّذِي لَا نَبْتَ فِيهِ، بَحْرِيَّةٌ: سَفْنٌ شَبَّهَ الْإِبِلَ بِهَا، يَزْفِي: يَسُوقُ، لَا تُثَنِّي بِرَاكِبِهَا: لَا تُؤَخِّرُهُ حَتَّى يَنْتُونَا عَلَيْهِ، الْعَيْدِيَّةُ: الْإِبِلُ الْمَنْسُوبَةُ إِلَى (عَيْدَانَ بْنِ مَهْرَةَ) النَّجُودِ: الْمَاضِيَةِ. الْحَدْيَانُ: ضَرْبٌ مِنَ السَّيْرِ، وَشَحْشَحَ: فَلَاحَةٌ وَسَاعَةٌ بَعِيدَةٌ، مَحَلٌّ لَا نَبْتَ فِيهَا: جَرْدٌ، جَرْدَاءُ، أَرْهَقْتَهُنَّ: أَدْرَكْتَهُنَّ، نَكْظًا: عَجَلَةٌ شَدِيدَةٌ، تَنْقُصِدُ: تَنْكَسِرُ.

(٢) المرجع نفسه ١٠٢٦/٣ اسْتَحْلَسَ النَّبْتَ: إِذَا غَطَّى الْأَرْضَ مِنْ كَثْرَتِهِ، وَهِيَ أَرْضٌ كَثِيرَةُ الْأَرْضَى، الرَّدَى: الْهَلَاكُ، الْمَدَى: الْغَايَةُ، الْعَيْسُ: الْإِبِلُ، الْمَنَاهِلُ: الْمِيَاهُ، مَلْتَمَهُمُ الصَّحْرَاءُ: يَعْنِي اللَّيْلِ، الْغِيَاظِلُ: الظُّلْمُ الشَّدِيدَةُ وَاحِدَتُهَا غَيْظِلَةٌ: الْعَيْدِيَّةُ: الْإِبِلُ، التَّوَالِي: أَرْجُلُهَا، مَاطِلِيَّةٌ: مَنْسُوبَةٌ يَعْنِي إِبِلٌ مَنْسُوبَةٌ إِلَى مَاطِلِ فَحْلٍ مِنْ كِرَامِ الْإِبِلِ، ذَاتِ رَيْعٍ: تَرْبَعٌ فِي الْعَدْوِ، وَتَرْجَعُ فِي الْمَشْيِ. الْخَائِلِ: الْمَفْخَرِ، يَرِيدُ أَنَّ الطَّرْفَ يَسْتَخْفِئُ فِي السَّيْرِ حَتَّى كَانَهَا خَرِيْعٌ: وَهِيَ الْفَاجِرَةُ. مِنَ الْخُرْسِ إِلَّا أَنْ تَرُدَّ بُغَامَهَا: يَعْنِي لَا تَرْغُو. الْحَصِيرَانُ: الْجَنْبَانُ، قَافِلٌ: ضَامِرٌ.

وهذا ساعدة بن جُوَيَّة يشبه الإبل بالسفن فيقول:

تَحْمَلْنَ مِنْ ذَاتِ السُّلَيْمِ كَأَنَّهَا سَفَائِنٌ يَمَّ تَنْتَحِيهَا دُبُورُهَا (١)

فلما كانت الناقة سفينة الصحراء في البادية، فلا عجب أن يهتم بها الهذليون ويصفوها ويشبهوها بتشبيهات كثيرة تناسب بيعتهم البدوية، فهذا أسامة بن الحارث يحدثنا عن الإبل، ويصف ناقته بأن يديها إذا أرقلت تبدو كأنها يدا امرأة في صدرها "ضبان" أي حقدان تعرو سبابا، أي تُسَابُ أُخْرَى، ثم يشبه الناقة بحمار يقاتل الذباب عن جنبه فيقول:

أَقَامُوا صُدُورَ مُسْنَاتِهَا بَوَاذِخَ يَعْتَسِرُونَ الصُّعَابَا
مِنَ الْمُضَرِّيَّاتِ لَا كَزَرَّةَ لَجُونًا وَلَا رَاشَةَ الظُّهْرِ نَابَا
كَأَنَّ يَدَيْهَا إِذَا أَرَقَلَتْ يَدَا ذَاتِ ضَبَّيْنِ تَعْرُو سِبَابَا
كَأَصْحَمَ فَرْدٍ عَلَى عَانَةٍ يُقَاتِلُ عَنْ طُرْتَيْهِ الذَّبَابَا (٢)

وأظن أننا أطلنا في الحديث عن الناقة، فلندكر شيئاً عن وصفهم بقية الحيوان في البادية.

فهذا الأعلم يصف الضبُع بأنها غليظة، ثم يذكر أن الخروق التي فوق دبرها ثمانية، وقد نظر إلى زماعها وهي الشعرات الجافة في مؤخر رجلها، فذكر أن لها فوقه وشماً كأنه الخلخال، وتراه يبعد في وصفها فيذكر أن هذه الضبُع ليست ككل الضباع، وإنما هي عظيمة الرأس، ولها في أسفل بطنها جرابٌ كجراب قضيبي البعير، يريد أنها خنثى، وذكر بعضهم أنه يريد أن لها ما للذكر والأنثى فنراه يقول:

(١) المرجع نفسه ٣/ ١١٧٥.

(٢) المرجع نفسه ٣/ ١٢٩١ مسنات، يعني الإبل، بواذخ: مُشْرِفَات، يعتسرون: يركبون، مُضَرِّيَّات: منسوبة إلى مُضَر، لَجُونٌ: بَطِيئَةٌ، الكَزَرَّة: التي ليست بوساع في السير، وفي البيت الثالث يقول: كأن يديها إذا أرقلت يدا امرأة في صدرها «ضبان» أي حقدان، تعرو سبابا: أي: تُسَابُ أُخْرَى، عن طُرْتَيْهِ: عن جنبه، الأصحم: الاسم من الصَّحْمَةِ، أي: سواد في صفرة.

عَشَنْزَرَةٌ جَوَاعِرُهَا ثَمَانٌ فُوقِقَ زِمَاعِهَا خَدَمٌ حُجُولٌ
 تراها الضَّبْعُ أعْظَمَهُنَّ رَأْسًا جُراهِمَةٌ لَهَا حِرَّةٌ وَثِيلٌ^(١)
 وفي موضعٍ آخَرَ يحدثنا عن الضَّبْعِ وأولادها، ويشبّه آذانها بالمغارف، لأنها آذان
 قصيرة عريضة، يقول:

وَتَجَرُّ مُجْرِيَةً لَهَا لَحْمِي إِلَى أَجْرِ حَوَاشِبٍ
 سُودٍ سَحَالِيلٍ كَأَنَّ جُلُودَهُنَّ ثِيَابُ رَاهِبٍ
 آذَانُهُنَّ إِذَا احْتَضَرْنَ فَرِيْسَةً مِثْلُ الْمَذَانِبِ
 يَنْزِعْنَ جِلْدَ الْمَرْءِ نَزْعَ الْقَيْنِ أَخْلَاقَ الْمَذَاهِبِ^(٢)

وهذا أبو كبير يصف ذئبةً وهي تمضي متلفتة كتلفت الغضبان فيقول:

أَخْرَجْتُ مِنْهَا سَلْقَةً مَهْزُولَةً عَجْفَاءٌ يَبْرُقُ نَابُهَا كَالْمِعْوَلِ
 فَزَجَرْتُهَا فَتَلَفَّتْ إِذْ رُعْتُهَا كَتَلَفَّتِ الْغَضْبَانَ سُبَّ الْأَقْبَلِ^(٣)

وهنالكَ أُرْجوزة لعمرو ذي الكلب يصف فيها الذئب الجائع ويرسم له صورةً
 دقيقةً مُكتملةً التفاصيل، واضحةً الملامح، فيتحدث فيها عن الغنم وعن الذئب الذي
 جاء بسرعة من علاوة الريح. يقول:

يا لَيْتَ شِعْرِي عَنْكَ وَالْأَمْرُ عَمَمٌ
 هل جَاءَ كَعْبٌ عَنْكَ مِنْ بَيْنِ النَّسَمِ

(١) المرجع نفسه ٣٢٢/١ عَشَنْزَرَةٌ: غليظةٌ مُسنّة، يريد الضَّبْعَ، جواعرُها ثَمَانٌ: يقال إن للضبيع
 خُرُوقًا كثيرةً، الزُمعة: التي خَلْفَ الظِّلْفِ مِثْلُ الزيتونة، خَدَمٌ، واحداها خَدَمَةٌ وهي مثل
 الخَلخال، لون يخالف سائر لَوْنِ رِجْلِهَا، حُجُولٌ: الحِجْلُ: الخَلخال، جُراهِمَةٌ: مُعْتَلِمَةٌ لَهَا حِرَّةٌ
 وَثِيلٌ يقال إنها حُنْثَى، والثيل: جِرابٌ قَضيبٌ البعير، وقد جعل للضبيع ثيلاً.

(٢) المرجع نفسه ٣١٤/١. مُجْرِيَةٌ: ضَبْعٌ ذات جِراء، إلى أَجْرِ: جمع جِرْوٍ، وَحَوَاشِبٍ:
 مُنتفِحاتُ البَطونِ، الأَجوافُ، قِصارُ، السَحَالِيلُ: واحداها سِحْلالٌ، وهي العِظامُ البَطونِ،
 المَذانِبُ: المغارف والواحدة مَذَنبَةٌ، المَذاهِبُ: أَخْلَةُ السِيفِ، القَيْنُ: الحِدادُ.

(٣) المرجع نفسه ١٠٧٧/٣، سَلْقَةٌ: ذئبةٌ والذِكرُ سَلَقٌ، عَجْفَاءٌ: مهزولةٌ، كالمِعْوَلِ: يريد حديدةً
 النَّابُ فكأنه طَرَفُ مِعْوَلٍ، إِذَا رُعْتُهَا: يعني الذئبة أفرعْتُها، يقول: كتلفت الغضبانِ الأقبِلِ
 سُبَّ، فقدم وأخر.

مَا صَنَعَ الْيَوْمَ أُوَيْسٌ فِي الْغَنَمِ
صَبَّ لَهَا فِي الرِّيحِ مَرِيحٌ أَشَمُّ

ثم يصفُ الذئبَ وكيف اختار من الغنم لَجَبَةً وهي التي أتت عليها أربعة أشهر من ولادها فحَفَّ لَبْنُهَا يعني ولى لَبْنُهَا فيقول:

فَاعْتَامَ مِنْهَا لَجَبَةً غَيْرَ قَزَمٍ
حَاشِكَةَ الدَّرَّةِ وَرَهَاءَ الرَّخَمِ
فَجَعْتُ لَا يَشْتَدُّ شَدْيِي ذُو قَدَمٍ
وَفِي الشُّمَالِ سَمْحَةٌ مِنَ النَّشَمِ

وفي آخر أرجوزته نراه يُقَسِّمُ على قَتْلِهِ فيقول: لئن رَمَيْتُ هذا الذئبَ من بعيدٍ أو قريبٍ لَأَقْتُلَنَّه فنراه يقول:

قَدْ كُنْتُ أَقْسَمْتُ فَثَنَيْتُ الْقَسَمَ
لئن نَأَيْتُ أَوْ رَمَيْتُ مِنْ أَمَمٍ
لَأَخْضِبَنَّ بَعْضَكَ مِنْ بَعْضِ بِيَدَمٍ^(١)

وهذا صَخْرُ الْغَيِّ يعرض للنَّمْرِ في مشيته حين تهب عليه الرياح الباردة، حيث يقشعر وينقبض، فيقول:

ومــــاءٍ وِرْدَتْ عَلَى زَوْرَةٍ كَمَشِي السَّبَنْتَى يِرَاحُ الشَّفِيفَا^(٢)
وهذا أبو ذؤيب يتحدَّثُ عن الخيلِ ويشبِّهها في سرعتها الشديدة بالعِقبانِ فيقول:

(١) المرجع نفسه ٥٧٥/٢، عَمَمٌ: عامٌ، النَّسَمُ: الناس، أُوَيْسٌ: الذئب ويسمى أُوَيْساً كذلك، مَرِيحٌ: من المَرَحِ، اعْتَامَ الذئبُ: اختار من الغنم، لَجَبَةٌ: هي التي أتت عليها أربعة أشهر من ولادها فحَفَّ لَبْنُهَا، القزم: اللئيم من كل شيء، حَاشِكَةُ: حافلٌ، وَرَهَاءُ: كأنها مجنونة، الرَّخَمُ: المحبَّة؛ فإذا أَحَبَّتْ ولدها فكانها مجنونة من شدة حُبِّها له، ورَمَيْتُ مِنْ أَمَمٍ، أي: من قَصْدٍ والأَمُّ أيضاً: القُرْبُ، يقول: ما كان غير بعيدٍ ولا قريب بعد ذلك.

(٢) المرجع نفسه ٣٠٠/١، زَوْرَةٌ: ازورار، السَّبَنْتَى: النَّمْرُ وهو اسمٌ من أسمائه، يِرَاحُ: يجدُّ الرياح، الشَّفِيفُ: البَرْدُ، فهذا مُزَوَّرٌ يمشي في جانبِ النَّمْرِ الذي تحرَّف فلم ينبسط في المضي.

وتُبْلِي الأَلْيَ يَسْتَلْتُمُونَ عَلَى الأَلْيِ تَرَاهُنَّ يَوْمَ الرُّوعِ كَالْحَدِيدِ القُبْلِ

فَهُنَّ كَعِقبَانَ الشَّرِيفِ جَوَانِحُ وَهُمُ فَوْقَهَا مُسْتَلْتُمُو حَلْقِ الجَدْلِ

مَنَايَا يُقَرِّبْنَ الحُتُوفَ لِأَهْلِهَا قَدِيمًا وَيَسْتَمْتَعْنَ بِالأَنْسِ الجِبْلِ (١)

وهذا مُلَيِّحُ القَرْدِيِّ يَذْكَرُ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ، وَهِيَ كُلُّهَا غَزَلٌ سَادَجٌ يُمَثِّلُ حَيَاةَ البَادِيَةِ وَحَيَوَانِهَا، فَيَذْكَرُ فِي بَعْضِ أُبْيَاتِهِ الطَّبَّاءَ وَالعَرَبَانَ فيقول:

عَدَاةَ جَرَّتْ لَنَا بِفِرَاقِ سَعْدَى طِبَّاءُ الجِرْعِ سَانِحَةٌ تَعِيرُ

طِبَّاءُ غَيْرُ سَاكِنَةٍ وَحُمُّ أَلِ خَوَافِي حَتْمُهَا عَجَلٌ عَسِيرُ (٢)

فلما عاشوا فِي البَادِيَةِ يَحْمِلُونَ لَهَا طَاقَاتٍ هَائِلَةً مِنَ الحُبِّ وَالفِتْنَةِ وَالشَّغْفِ، دَفَعَهُمْ ذَلِكَ إِلَى رَسْمِ تِلْكَ اللُّوْحَاتِ الرَّائِعَةِ لِكُلِّ مَا كَانُوا يَرُونَهُ حَوْلَهُمْ فِي البَادِيَةِ. وَلَكِن الصَّحْرَاءُ لَمْ تَكُنْ فِي أَعْمَاقِهِمْ طَبِيعَةً صَامِتَةً فَحَسَبَ - وَإِنَّمَا كَانَتْ أَيْضًا طَبِيعَةً حَيَّةً مُتَحَرِّكَةً، تَتَمَثَّلُ فِي تِلْكَ الصُّورِ المُتَحَرِّكَةِ مِنَ الحَيَوَانَاتِ الَّتِي كَانُوا يَرُونَهَا فِي الصَّحْرَاءِ سَارِحَةً فَوْقَ رَمَالِهَا أَثْنَاءَ رِحْلَاتِهِمْ وَتَنَقُّلَاتِهِمْ بَيْنَ أَفْنَاءِ البَادِيَةِ، وَلَا بَأْسَ أَنْ نَعْرُضَ هُنَا لَمَّا يَقُولُهُ سَاعِدَةُ بَنِ جُوَيْهٍ فِي وَصْفِ الضَّبِّعِ، فَقَدْ وَصَفَ الضَّبِّعَ وَهِيَ تَمَشِي فِي هَدْوٍ اللَّيْلِ مَشِيًّا وَثِيْدًا، فَكَانَتْ مُثْقَلَةً وَمُسْنَةً، وَهِيَ تَقْضِي اللَّيْلَ بَحْثًا عَنِ حِمَارٍ مَاتَ أَوْ إِنْسَانٍ قُتِلَ، ثُمَّ يَشْبَهُ مَشِيَّهَا وَهِيَ تَدْلُجُ فِي هَدْوٍ اللَّيْلِ بِمَشْيِ الرَّجْلِ الأَقْبَلِ، أَيْ: الأَحْوَالِ الَّذِي يَسِيرُ بِاللَّيْلِ، وَكَأَنَّهُ يَتَلَفَّتْ وَيَدِيرُ عَيْنِيهِ، ثُمَّ وَصَفَهَا حِينَ مَرَّتْ بَيْنَ طُرُقِ المَقَابِرِ ثُمَّ فَتَحَتْ مَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَأَخَذَتْ تَنْبِشُ التَّرَابَ فيقول:

إِذَا مَا زَارَ مُجَنَّةً عَلَيْهَا ثِقَالُ الصَّخْرِ وَالخَشْبُ القَطِيبُ

وَعُودِرِ ثَاوِيًا وَتَأَوَّبَتْهُ مُدْرَعَةٌ أَمِيمٌ لَهَا فَلَيلُ

(١) المرجع نفسه ٩٢/١ يلبسون: يلبسون: الأُمة وهي الدرع، كالحديد القبل: أراد كالحديد المُفْرَعَةَ، فكان في عيونها قبلاً كأنه حوّل، الحديد جمع والواحدة حداة، فهن: يعني الخيل، وهم: يعني الفرسان، الجدل: الدرع الجداء هي التي حلقها مستديراً ليس بأفطح، الشريف: مكان، جوانح: قد أكبرين في السير، والجنوح: دئو الصدر من الأرض، الجبل: الكثير.

(٢) المرجع نفسه: ١٠١٠/٣ تعير: تذهب، غير ساكنة: يريد أنها تذهب، حم الخوافي: يريد الغريبان، حتمها: قضاؤها إذا تطيروا منها.

لَهَا خَفَّانٍ قَدْ ثَلَبَا وَرَأْسُ
تَبِيتُ اللَّيْلَ لَا يَخْفَى عَلَيْهَا
كَمَشِي الْأَقْبَلِ السَّارِي عَلَيْهَا
فَذَاحَتْ بِالْوَتَائِرِ ثُمَّ بَدَتْ
كَرَأْسِ الْعُودِ شَهْبَرَةً نَوُولُ
حِمَارٍ حَيْثُ جُرَّ وَلَا قَتِيلُ
عِفَاءٌ كَالْعِبَاءِ عَفْشَلِيلُ
يَدَيْهَا عِنْدَ جَانِبِهِ تَهِيلُ (١)

فلا شك أن هذه صورة حية متحركة، تدل على ذكاء وعبقرية لدى الشاعر الذي رسم لنا هذه الصورة.

وهذا أبو ذؤيب الذي تحدّث عن الحيوان كثيراً، وقد أجاد الرثاء حتى تقدّم شعراء هذيل فيه، كما أنه برع في تسجيل حركات الحيوان ومتابعته في البادية، ويظهر ذلك جلياً في كل ما كان يقصّه من قصص، فاستمع إليه في قصيدته العينية التي قالها في رثاء بنيه الخمسة حينما هلكوا في عام واحد، أصابهم الطاعون، وكانوا رجالاً ولهم بأسٌ ونجدة، وكانوا قد هاجروا إلى مصر، فبكاهم جميعاً، وجعل صدر قصيدته حديثاً بينه وبين امرأة تسأله عن شحوبه وأرقه، فيروي لها حزنه وألمه لهذه النكبة.

ومما يلفت النظر في هذه القصيدة بدوّه الأبيات ١٥، ٣٦، ٤٩ بمطلع واحد وهو "والدهر لا يبقى على حدّثانه" ففي الموضع الأول يتحدّث عن حمار الوحش وهلاكه، وفي الموضع الثاني عن الثور الذي يفيض القول في هلاكه وينعته وينعت الصائد والكلاب، وفي الموضع الثالث يتحدّث عن مصرع البطل الفارس الكامل السلاح، ويصف هذا البطل وموقفه إزاء بطل آخر يضطرعان ويتشاجران بالسلاح، فإذا به في النهاية يخر صريعاً قتيلاً، والمهم أن أبا ذؤيب يتخذ من هذه الأنماط الثلاثة عزاءً لنفسه وتسليّة لها، وحضاً على الصبر، فهذه الأنماط الثلاثة لا شك أنها من مظاهر القوى الحيويّة التي تتمثل في الحمار والثور والبطل، وأنها لا تجدي شيئاً أمام الموت، لأنه أقوى وأقدر.

(١) المرجع نفسه ١١٤٦/٣. مُجَنّاة: يعني القبر، القطيل: المقطوع، عُود: ترك، الشاوي: المقيم، مُدْرَعَة: يعني ضبعاً بذراعها توقيف، أي: آثار، الفليل الشعر والوبر، شهيرة: مُسنّة، النّوول، أي تمشي كأنها مثقلة، الأقبل: الذي في عينيه قبل شبيهة بالحول، عفاؤها: وبرها وشعرها، عفشليل: ثوب عفشليل، أي: جاف ثقيل، ذاحت: مرّت مرّاً سريعاً سهلاً، الوتائر: طرائق مرتفعة من الأرض يتبع بها بناء القبور، بدت يديها، أي: فتحت ما بين يديها، تنبش: تنبش.

وهو في الموضع الأول يتحدث عن حمار الوحش وينعته نعماً عجباً، فيصف الحمار الوحشي القوي المنطلق مع أنه بكل قوة ونشاط، وكيف أنه يمرح معها في الأراضي الخصبة في حرية وقوة، ويفاعة ومنعة، وكيف كان ينطلق بالصريخ بأعلى الأصوات كناية عن فتائه وقوته وصباه، وأنه أخذ مع أنه في الاضطراب والمغالبة والمراوحة، مرة على سبيل الجد، وأخرى على سبيل اللهو والمرح، مما يدل على ما كانوا ينعمون به من حرية ومرح وانطلاق، فيقول:

والدهرُ لا يبقي على حدّثانه	جَوْنُ السَّرَاةِ لَهُ جَدَائِدُ أَرْبَعُ
صَخْبُ الشَّوَارِبِ لَا يَزَالُ كَأَنَّهُ	عَبْدُ لَالِ أَبِي رَبِيعَةَ مُسْبَعُ
أَكَلَ الْجَمِيمِ وَطَاوَعْتُهُ سَمَحَجٌ	مِثْلُ الْقَنَاةِ وَأَزَعَلْتُهُ الْأَمْرُعُ
بِقَرَارِ قَيْعَانَ سَقَاهَا وَأَيْلٌ	وَاهٍ فِإِنَّ جَمَّ بُرْهَةً لَا يُقْلَعُ
فَلَيْشْنَ حِينًا يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضِهِ	فَيَجِدُ حِينًا فِي الْعِلَاجِ وَيَشْمَعُ (١)

ثم يحدثنا عن الصياد الذي كان يترىض بالحمر، وكان انتهاء حياة حمار الوحش على أيدي الصياد، وانتهى أمره بالهلاك والفناء، كما أن الأتن جميعاً ذاقت كؤوس الردى ووردت سبيل الفناء، حيث أصاب كل واحدة منهن سهم اخترق جنبها واستقر في أحشائها، فكن بين مصروعة مجدلة، وهاربة يتحرك فيها النفس، ولكنها تعاني سكرات الموت، وستنتهي كما انتهت الأخريات، وقد كانت النصال من الكثرة بدرجة تعثرت فيها الأتن أثناء فرارها، وكانت دماؤها تسيل على الأيدي والأرجل حتى

(١) كتاب شرح أشعار الهذليين ج١ ص ١١-١٤، قطوف من ثمار الأدب للدكتور عبد السلام سرحان ج٢ ص ١٤٢. الحدّثان: مصائب الدهر وبلاياه، والجون: الأبيض والأسود من أسماء الأضداد، والمراد به حمار الوحش، السرة: أعلى كل شيء، والجدائد: جمع جدود، وهي الأتان السمينة التي خف كبنها، والصخب: الشديد الصوت، الشوارب: عروق في الحلق، ومجاري الماء في العنق. الجميم: النبات أولُ خروجه من الأرض والحمار لا يتمكن منه آنعد، العميم: النبات الذي ارتفع قليلاً حتى يتمكن منه، والسّمحج: الأتان الطويلة على وجه الأرض، القناة: الرمح، أزعلته: نشطته، الأمرع: جمع مرع وهو الخصب، القرار: مكان الاستقرار، القيعان: جمع قاع وهو أرض سهلة مطمئنة، والوايل: المطر الشديد، واه: متفجر بالماء، أثجم: أقام وثبت، يقلع: ينقطع، يعتلجن: يصطرعن ويتسابقن، ويشمع: يلعب ويهزل.

كونت خطوطاً حمراء تُري الناظر أنها ملفوفة بتلك البرود الملونة بالحمرة في خطوط طويلة فيقول:

فَبَدَأَ لَهُ أَقْرَابَ هَذَا رَائِغاً عَجِلاً فَعَيْثَ فِي الْكِنَانَةِ يُرْجَعُ
فَرَمَى فَأَلْحَقَ صَاعِدِيّاً مِطْحِراً بِالْكَشْحِ فَاشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ الْأَضْعُ
فَأَبْدَهُنَّ حُتُوفَهُنَّ فَهَارِبٌ بِذِمَائِهِ أَوْ بَارِكٌ مُتَجَجِّعٌ
يَعْتُرْنَ فِي حَدِّ الطُّبَاتِ كَأَنَّمَا كُسِبَتْ بَرُودُ بَنِي تَزِيدَ الْأَذْرَعُ^(١)

وفي الموضع الثاني يتحدث عن الثور الوحشي، المُكْتَمِلِ الْقَوَى، فيعرض لتنقله في الآفاق، وتعوده حرية الانطلاق، وعدم خضوعه لأي قيد من القيود، وحرية في التمتع بكل ما حوله، ثم يتكلم عن كلاب الصيد التي رُوِّعَتْهُ وَأَفْرَعَتْهُ، فهام في جوانب الأرض إلى كل اتجاه، وبكل سرعة ونشاط، وكان يختفي عن عيون الصائدين، وكيف أنه كان يلجأ إلى شجر الأَرطَى ويحتمي بين ظلاله، مما يدل على حَذَرِهِ وَيَقْطَعْتِهِ، ولكنه خرج مرةً من ظلال الأَرطَى ليقف في الشمس، فلحظته كلاب الصيد، فأصيب بالجزع والفرع، وأطلق سيقانه للريح خوفاً ورعباً، ثم أخذت الكلاب تطارده فأدركته وأخذت يطعنهما بقرنية الحادّين، ويغرسهما في لحمها فتلطخا بالدم، وظهرا كأنهما مصبوغان بصبيغ أحمر، ثم يشبه قرني الثور وقد تلطخا بدماء الكلاب بسفودين وضع عليهما الشواء ثم نزع قبل نضجه وإدراكه فظهرا مُلَوَّئِينَ بدم اللحم النيء، وهي صورة تمثل حالة دفاعه الشديد عن نفسه، ومحاولته الاحتفاظ بالحياة، فكانت نهاية الثور المحتومة بعد مقاومته ودفاعه عن نفسه، حيث وقع على الأرض وتعفر بالتراب، وتمدد على جنبه بعد أن لقي مصرعَهُ، فيقول:

(١) المرجعان السابقان، الأول ٢٣/١-٢٥، والثاني ١٥٢/٢. الأقرب: جمع قُرْب وهو الخاصرة، رائغاً، أي: هارباً، عَجِلاً: مسرعاً، عَيْثَ: مَدَّ يَدَهُ فَأَدْخَلَهَا فِي الْكِنَانَةِ وهي خزانة السهام المحمولة معه خلف ظهره، صَاعِدِيّاً: نسبة إلى صَعْدَةٌ، وهي أرض، أو نسبة إلى رجل يقال له صاعد، وبنات صَعْدَةٌ: حمير الوحش، والنسبة إليها صَاعِدِيٌّ على غير قياس، مِطْحِراً ملتصق القذذ جمع قُدَّة، وهي ريشة السهم، أَبْدَهُنَّ: أعطاهن، الحتوف: جمع حتف وهو الموت والهلاك، والذَّمَاء: بقية النَّفْسِ، الْمُتَجَجِّعِ: الساقط المصروع اللاصق بالأرض، الطُّبَات: جمع طَبَّة وهي طرف النصل من أسفل، البرود: جمع بُرْد وهو الثوب المعلم، وبنو يزيد: قبيلة من قُضَاعَةَ، الأذرع: أيدي الأثْنِ.

والدهرُ لا يَبْقَى على حَدَثَانِهِ
شَعَفَ الكلابُ الضَّارِيَاتُ فَوَادَهُ
ويعودُ بالأرطَى إذا ما شَفَّهُ
يرمي بعينه الغُيوبَ وطرفه
فغداً يشرقُ متنه فبدا له
فاهتاج من فزعٍ وسدَّ فروجه
ينهشنه ويذبهنَّ ويحتمي
فنحا لها بمذلقين كأنما
فكان سَفُودَيْنِ لما يُقترا
فصرعنه تحت الغبارِ وجنبه

شَبَبُ أَفْزَتُهُ الكلابُ مَرَوَعُ
فإذا رأى الصُّبحَ المُصدِّقَ يَفْزَعُ
قَطْرٌ وراحتَه بَلِيلُ زَعْزَعُ
مُغْضٌ يَصْدُقُ طرفه ما يَسْمَعُ
أولى سَوَابِقِهَا قَرِيباً تَوَزَعُ
غُبْرُ ضَوَارٍ وافيانِ وأجدعُ
عَبْلُ الشَّوَى بالطَّرْتَيْنِ مُوَلِّعُ
بهما من النَّضخِ المُجدِّحِ أيدعُ
عَجَلًا لَهُ بِشِوَاءِ شَرَبٍ يُنْزَعُ
مُتَتَرَّبٌ ولكلِّ جنبٍ مَصْرَعُ (١)

(١) المرجعان السابقان نفسيهما. الأول ١/٢٦-٣٠، والثاني ج٢ ص ١٥٥. الشَّبَبُ: الثور الذي اكتملت سنه وتمت أسنانه أو تم شبابه، أَفْزَتُهُ: استخففته وطيرته، مَرَوَعُ: مخوف مُفْزَعٌ، شَعَفَ الكلابُ فَوَادَهُ: أذهبت عقله وملأن قلبه خوفاً، الشَّعْفُ: إحراق الحبِّ القلب، الضاريات: اللاهجة بالصيد، الصبح المصدق: هو الفجر الصادق، أو المضيء إضاءة ثابتة، عاذ بكذا: لجأ إليه، الأرطى: شجر يلجأ إليه البقر في ساعات الخوف، شَفَّهُ: آذاه وجهده، القطر: المطر، راحته: أصابته الريح، البليل: ريح الشمال الباردة، الزعزع: العنيفة التي تززع كل شيء وتحرّكه، الغيوب: جمع غيب وهو الموضع الذي لا يرى ما وراءه، طرفه مُغْضٌ: بمعنى مطرق، يشرق متنه: يعرض ظهره للشمس، أولى سوابقها، أي: الكلاب المطاردة له، توزع: تُوَقَّفُ وتُحْبَسُ أو بمعنى تُغْرَى به وتُوَجَّه إليه، وقريباً، أي من الثور، اهتاج: تحرك مسرعاً، سدَّ فروجه: ملأ قوائمه عدواً. الغُبرُ جمع عُبر، وعبراء: يعني الكلاب المطاردة ذات اللون الأغر المشبه للتراب، الوافيان: الصحيحان السليمان، الأجدع: المقطوع الأذن، ينهشنه: ينزعن لحمه مع التمكن منه، يذبهن: يذودهن عن نفسه، عَبْلُ الشَّوَى: ضخم القوائم غليظها، الطرتان: خيطان في جنبه يفصلان بين الجنب والبطن، مُوَلِّعُ: فيه توليع، أي: لوان مختلفان، أبيض وأسود. نحا: تحرف ليطعنها، المذلقان: القرنان الأملسان المسنونان، النضخ: الرش بما ثخن كالدّم ونحوه، المُجدِّحُ: المحرك، الأيدعُ: صبغ أحمر، السَّفُودُ: حديدة مستديرة طويلة لشواء اللحم، لما يُقترا: لم يظهر منها ريح قنار اللحم، أو بمعنى لم يستعملا قبل ذلك، الشَّرْبُ: الشاربين، يُنْزَعُ: يُفْصَلُ عن السَّفُودَيْنِ. الغبار: التراب. المصراع: المقتل.

وعلى هذا النَّحْوِ كان وصفُهم للصحراء والبادية، ووصف ما فيها من حيوان أو وَحْشٍ، وكل ما تقع عليه أعينهم بين أفناء البادية، فهو وصفُ البدوي الأصيل ابن البادية الذي عاش بها ولها، فقد كانوا يرصدون مظاهرها ومناظرها المتعددة لِيُسَجِّلُوها في أشعارهم، لوحات رائعة، تَوَقَّرَ لها كلُّ مقومات الفنِّ والصناعة، وتظهرُ فيها كذلك تجاربهم المتعددة وخبراتهم الواسعة في عناية ملحوظة بالتفاصيل والجزئيات، ومهارة فائقة في استخدام الأصباغ والألوان، وبراعة ممتازة في توزيع الظلال والأضواء ومقدرة جديرة بالإعجاب على إشاعة الحركة وبث الحياة في كلِّ لوحة منها.

يقول الدكتور أحمد كمال زكي: "والشَّعْرُ الهذليُّ تحدَّثَ عن الحيوان كثيراً وعنى به عناية تامة، فوصفه ووصف حركاته ومثل هيئاته، وقصَّ علينا من عاداته الشيء الكثير، كلُّ ذلك في استغراق وأناة حتَّى أصبحَ في ديوانهم باباً مستقلاً بذاته. وقد يقال: إن شعراء العرب جميعاً لا سيما في العصر الجاهليِّ فعلوا ذلك، حيث نجدُ في معلقات القدماء وفي غيرها إشارات^(١) قوية إليه، بل وقفات طويلة يهتم فيها الشاعر بوصف كلِّ جزء من أجزاء الحيوان كما نرى عند طرفة حين وصف ناقته، ولكن عناية الهذليين بالحيوان كانت فيما يبدو لي أقوى، واهتمامهم بالتحدُّث عنه ووصفه كانا أوضح وأشدَّ، وإذا كان قد غلب على شعراء المعلقات أن يصفوا الناقة أو الفرس، فإن الهذليين لم يعنوا بهما - خاصة الفرس - وحتى هؤلاء الذين وصفوا الحيوان الأخير أخطئوا في وصفهم لأنه لم يكن في حياتهم دائماً.

وجَّه الهذليون أنظارهم إلى البادية ووصفوا ما فيها من وَحْشٍ، فتكلَّموا عن الذئب والضباع والحُمُرِ والبقر، وعرضوا للظَّليم والنسور والعقبان، وتكلَّموا عن أشكالها وطبائعها، ووقفونا على سلوكها في الفجر وخلال النهار، وإذا الليلُ أقبلَ، كلُّ ذلك في تأنٍّ وفي ميلٍ كبيرٍ إلى نقلِ كلِّ ما يتصل به نقلاً دقيقاً يدلُّ على قوَّة ملاحظتهم، وشعْرُ الهذليين في الحيوان يتكلَّم عن ذلك كلِّه، ونراه في كلِّ موضعٍ بدويانهم حتى ليخيَّلُ إلينا أنَّ الشاعرَ يُقحِّم هذا الوصفَ في قصائده إقحاماً، وكأنما كان يلتمس كلَّ وسيلة ليتحدَّثَ عنه"^(٢).

(١) في الأصل: إشارة، وما هنا أنسب.

(٢) شعر الهذليين للدكتور أحمد كمال زكي ص ٢١٤.

ويقول في موضع آخر: "إنَّ الهذليين لم يكونوا يقصرون حديثهم على هيئة الحيوان فقط، بل ربما كانت عنايتهم بوصف حالاته أكثر، ومن هنا نجا شعرهم من هذا الملل الذي قد نشعرُ به نحن إذا قرأنا وصف أعضائه واحداً واحداً" (١).

والحق أن مَنْ يُسرحُ نظره في أشعار الهذليين يحسُّ إحساساً عميقاً بأنهم لم يكادوا يتركون شيئاً في البادية وما فيها من حيوان أو وحشٍ دون أن يقفوا عنده ليصفوه في دقةٍ تلفتُ النظر، وتنتزع الإعجاب.

وحياةُ البادية قد ضمنتُ لهذيلِ السليقة اللغوية، والفصاحة البدوية، وخلصتُ لهم لغةُ البادية صافيةً نقيّةً، وتزوّدوا منها بثروة ضخمة من الألفاظ والتراكيب، ولذلك تظهرُ في أشعارهم سماتُ البداوة واضحةً، لأنهم أهلُ البادية، أضفْ إلى ذلك أنهم أحبُّوها وعشّفوها.

فهذا قيسُ ابن العيزارة يقولُ يومَ أن أسرته فهمُ فأقلتَ منهم، وكان تأبطُ شراً قد أخذَ سلاحه فيقول في قصيدة طويلة:

سَلَّتْ عَلَيْهِ شَلَّ مَنِّي الْأَصَابِعُ	سَرَا ثَابِتٌ بَزْيٌ ذَمِيمًا وَلَمْ أَكُنْ
مِن الْقَوْمِ حَتَّى شَدَّ مَنِّي الْأَشَاجِعُ	فِيَا حَسْرَتَا إِذَا لَمْ أُقَاتِلْ وَلَمْ أُرْعَ
فَوُقِّرَ بَزٌّ مَا هُنَاكَ ضَائِعُ	فَوَيْلٌ بَبَزٌّ جَرَّ شَعْلٌ عَلَى الْحَصَا
لَدُو حَاجَةٍ حَافٍ مِّن الْقَوْمِ ظَالِعُ	فَإِنَّكَ إِذْ تَحْدُوكَ أُمَّ عُوَيْمِرٍ
سِوَاكُنْ ذُو الشَّجْوِ الَّذِي أَنَا فَاجِعُ	وَقَالَ نِسَاءٌ لَوْ قُتِلْتَ لَسَاءَنَا
إِلَى حُسْنِ تِلْكَ الْعُيُونِ الدَّوَامِعُ	رَجَالٌ وَنِسْوَانٌ بِأَكْنَافِ رَايَةٍ
إِذَا مَا غَزَا مِنْهُمْ مَطِيٌّ وَعَاوِعُ	سَتَنْصُرُنِي أَفْنَاءَ عَمْرٍو وَكَاهِلٍ
وَجَادَتْ عَلَيْهِ الْبَارِقَاتُ اللَّوَامِعُ	سَقَى اللَّهُ ذَاتَ الْعَمْرِ وَبَلَاءَ وَدِيمَةٍ
مَرَبٌ فَتَهَوَّاهَا الْخَاضُ النَّوَارِعُ (٢)	بِمَا هِيَ مَقْنَاءُ أُنَيْقٍ نَبَاتِهَا

(١) شعر الهذليين للدكتور أحمد كمال زكي ص ٢١٧.

(٢) كتاب شرح أشعار الهذليين ٥٩١/٢، سراً ثابتٌ بزّي: يعني تأبطُ شراً، خلعه، أي: سلبه سلاحه حين أسره، ذميمةً، أي: هو ذميم، شلُّ مني الأصابع: دعا على نفسه ألا أكون سللتُ عليه السيفَ فقتلته، وشعلٌ: لقب تأبطُ شراً، وكان تأبطُ شراً قصيراً، فلبيس سيفه، فجره على الحصا، فوقره: جعل فيه وقرة، وقوله: «ويلٌ ببزٌّ» يتعجب منه، بزّه: سلاحه، =

ولعل من الواضح كثرة الغريب، والقصيدة كلها على هذا المنوال. ولننظر كذلك إلى الدّاخل بن حرام حين يقول:

تَذَكَّرُ أُمَّ عَبِيدِ اللَّهِ لَمَّا	نَأْتُهُ وَالنَّوَى مِنْهَا لَجُوجُ
وَمَا إِنَّ أَحْوَرَ الْعَيْنِينَ رَخَّصُ الْ	عِظَامِ تَرُدُّهُ أُمَّ هَدُوجُ
بِأَحْسَنِ مَضْحَكًا مِنْهَا وَجِيدًا	غِدَاةَ الْحِجْرِ مَضْحَكُهَا بَلِيحُ
وَهَادِيَةٌ تَوْجَسُ كُلَّ غَيْبٍ	إِذَا سَامَتْ لَهَا نَفْسٌ نَشِيحُ
تُصِيحُ إِلَى دَوِيِّ الْأَرْضِ تُهْوِي	بِمِسْمَعِهَا كَمَا أَصَغَى الشَّجِيحُ
عَزَزْنَاهَا وَكَانَتْ فِي مَصَامٍ	كَأَنَّ سَرَاتِهَا سَحْلٌ نَسِيحُ
أَتِيحُ لَهَا أُغْيَبِرُ ذُو حَشِيفٍ	غَيْبِيٌّ فِي نَجَاشَتِهِ زَلُوجُ
أَحَاطَ النَّاجِشَانِ بِهَا فَجَاءَتْ	مَكَانًا لَا تَرُوعُ وَلَا تَعُوجُ (١)

والقصيدة طويلة، ويصف فيها بقرة وحشية، وهي مليئة بالغريب على ما هو ظاهر، ولا بأس أن نستمع إلى أبي ذؤيب وهو يقول:

وَقَرَّ: صارت فيه وقرات، أي: هزمت بالسيف. أم عويمر: الضبع، حاف ظالع: لا يقدر على الهرب منها، الشجو: الحزن، يقول: سواكن الذي يضرب قتلي لا أنتن، نسوان: يعني بناته وأهله، راية وحثن: بلدان، أكنافها: نواحيها، المطي: الرجالة، وعاع: أجرياء على السير، بارقات: سحائب فيها برق، لوامع: تلمع بالبرق، مقناة، أي: موافقة لكل من نزلها، مرب: مجمع، النوازع: التي تنزع إلى أوطانها، مخاض: إبل حوامل لسته أشهر، أنيق: معجب. (١) المرجع السابق ٦١١/٢. نواها: وجهها الذي أخذت فيه، نأته: بعدت عنه، لجوج: قد فعلت ذلك مرة بعد مرة، ترده: تتعهده في ذهابها ومجيئها وتطوف عليه، لها عليه هدجة، أي: حنين وتهديج، رخص العظام، أي: حديث العهد بالنتاج، عظامه رخصة لينة، الحجر: الذي بالبيت يريد أنه رآها ثم، بليح: مشرق، المضحك: موضع الأسنان التي تبدو إذا ضحكت، هادية: بقرة تتقدم كل البقر، توجس: تسمع على دعر، سامت: رعت، نشيح: انتحاب من صدرها، والنشيع صوت شبيه بالنفس، تُصيح: تُصغي وتتسمع، تهوي به: تضعه على الأرض، عززناها: غلبناها على هواها فهربت منا، مصام: يريد موضعاً كانت ترعى فيه، سحل: ثوب أبيض، نسيح، أي: كأن في ظهرها ثوباً أبيض يمانياً، الأغيير: هو الدّاخل يعني نفسه، حشيف: ثوب خلقت، غبي لا يرى، أي: خفي، النجاشة: استخراج الصيد وإثارته وحوشه، زلوج: يمر مرّاً سريعاً، الناجشان: اللذان يحوشان وهما صائدان، تعوج: تعطف.

أَصْبَحَ مِنْ أُمَّ عَمْرٍ بَطْنٌ مَرِّ فَأَكُ
 وَحَشًا سِوَى أَنْ فُرَادَ السَّبَاعِ بِهَا
 يَا هَلْ أُرِيكَ حُمُولَ الْحَيِّ غَادِيَةً
 هَبْطَنَ بَطْنٍ رُهَاطٍ وَاعْتَصَبَنَ كَمَا
 ثُمَّ شَرِبْنَ بِنَبْطٍ وَالْجِمَالُ كَأَنَّ
 نَافُ الرَّجِيعِ قَدُو سِدْرٍ فَأَمْلَاحُ
 كَأَنَّهَا مِنْ تَبَغْيِ النَّاسِ أَطْلَاحُ
 كَالنَّخْلِ زَيْنَهَا يَنْعُ وَإِفْضَاحُ
 يَسْقِي الْجُدُوعَ خِلَالَ الدُّورِ نَضَاحُ
 نَ الرَّشْحِ مِنْهُنَّ بِالْآبَاطِ أَمْسَاحُ (١)

إلى آخر القصيدة، فنلاحظ كثرة الغريب في أشعارهم.

ولا شك أن غرابة الألفاظ عندهم كانت نابعة من طبع أصيل، ثم إن تلك الألفاظ والكلمات كانوا يتداولونها في باديتهم، فجاءت غرابتها عن طبع وعن أصالة، ثم عن عفوية فهي بدون تكلف، ولذلك كانت جميلة في كل الأحيان، فهذا المتنخل يقول في طائيته التي يتحدث فيها عن العيب والمجون واللهو، ويصف النساء وإقبالهن عليه، ثم يصف الفرس الجميلة الفاخرة، وخيالاته وتمتعه بالنساء، ثم يتحدث فيها أخيراً عن الخمر حيث وصفها وصفاً جميلاً، كما وصف الساقى وأكواب الشراب، وهي قصيدة طويلة يقول فيها:

عَرَفْتُ بِأَجْدُثٍ فَنِعَافِ عَرَقٍ
 كَوْشَمِ الْمَعْصَمِ الْمُغْتَالِ عُلْتُ
 وَمَا أَنْتَ الْغَدَاةُ وَذَكَرُ سَلْمَى
 كَأَنَّ عَلِيَّ مَفَارِقِهِ نَسِيلاً
 فَاِمَا تُعْرِضِينَ أَمِيمَ عَنِّي
 فَحُورٌ قَدْ لَهَوَتْ بِهِنَّ وَحُدِي
 عَلامات كتحخير النمط
 نواشره بوشم مستشاط
 وأضحى الرأس منك إلى اشمطاط
 من الكتان ينزع بالمشطاط
 وينزعك الوشاة أولو النباط
 نواعم في المروط وفي الرياط

(١) المرجع نفسه ١/١٦٤. أكناف: نواح، فراد السباع: يقال لا ينفرد من السباع إلا أخبثها، الأطلاق: المعية، يريد أنها تربض وتلذق بالأرض كما يصنع المعبي، من خبثها تبغى الناس، وتطلبهم. فهي لبود لا تبرح، فكانها أطلاق معيبة، ياهل، يريد يا هذا هل، إفضاح: إذا بدأت فيها الحمرة والبياض، كالنخل شبه الإبل بالنخل، ينع: إدراك، ويقال: أفضح النخل: إذا بدأت حمرة وصفرة، رهاط: موضع على ثلاث ليال من مكة وهي لثقيف كما ذكر السكري، اعتصبن: اجتمعن، نضاح: الرجل الذي يستقي، ويقال: البعير، نبط: اسم واد، وهو شعب من شعاب هذيل. أمساح: جمع مسح وهو الكساء من الشعر، والرشح: العرق، شبه بالمسوح، لأن جلودها تسود على العرق.

لهوت بهن إذ ملقي مليح
أبيت على معاري فاخرات
يقال لهن من كرم وحسن
وإذ أنا في المخيلة والشطاط
بهن ملوب كدم العباط
ظباء تبالة الأدم العواطي (١)

إلى آخر القصيدة التي نشعر بجمالها وجمال ألفاظها حقاً، ثم جمال جرسها وموسيقاها وهي مليعة بالغيرب، إلا أنه الغريب الذي لا تكلف فيه.

وهذا أبو صخر - مع أنه إسلامي - يقول فلا نجد أثر التحضر في شعره كثيراً، كقوله في قصيدة طويلة يرثي بها ابنه داود، وقد بدأها بذكر الشباب ثم الغزل ثم المغامرات ثم عزوف النساء عنه:

تعزيزت عن ذكر الصبا والحبائب
وأصبحت تلحى حين رعت محمداً
ولو أنهم قالوا لقد كنت مرة
فإن يلبسوا برد الشباب وخاله
فسرب كأمثال الدمي منتهى المنى
قصار الخطا شم شمس عن الحنا
كموز السقى في حائر غدق الثرى
كبيض النقا في حاجر قرد الثرى
وأصبحت عزهى للصبأ كالمجانب
وأصحابه أن يعجبوا بالكواعب
عرفت ولم أنكر جواب المجانب
وأعتد في أطمار أشعث شاحب
يضمن الدجى لف ثقالب الحقائق
خدال الشوى فتخ الأكف خراعب
عذاب اللمي يحببن طل المناسب
جلته الصبا ميل طوال الذوائب

(١) المرجع نفسه ٣/ ١٢٦٦ أجدت ونعاف عرق: مواضع كما ذكر السكري، النمط، جمع نمط، كتعبير: كتتنيش، الوشم: أن يوشم الذراع واللثة بالإبرة ثم يحشى نؤوراً. فيقول: كأن آثار هذه الديار وشم في معصم مغتال، والمغتال: الممتلئ، نواشرة: عصبه، علت: وشم مرة أخرى وهذا مثل. مستشاط: استشاط، أي: طار كل مطير، وانتشر في الساعد، ينزحك: يودونك ويقرضونك، أولو النبات: الذين يستنبطون الأخبار ويستخرجونها. الحور: الشديدة بياض الحدقة الشديدة سوادها، ملقي: لين كلامي وهو التملق، الشطاط: حسن القوام، المخيلة: الخيلاء، العباط: جماعة العبيط والعبيط ما ذبح أو نحر من غير مرض قدمه صاف، الملوب: المطلي بالطيب الملاب، العواطي: اللواتي يتناولن أطراف الشجر، والواحدة عاطية.

تَصَابَيْتُ حَتَّى اللَّيْلِ مِنْهُنَّ رَغَبَتِي رَوَانِي فِي يَوْمٍ مِنَ اللَّهْوِ هَاضِبٍ (١)

إلى غير ذلك من الأمثلة التي تتضح فيها الغرابة في الألفاظ .

والحق أن الغرابة صفةٌ تميزُ أشعارَ الهذليين، وهي سِمَةٌ من سِمَاتِ شِعْرِهِمْ، ومن الواضح أن البادية كان لها أكبرُ الأثر في ذلك، فشِعْرُ البادية في ألفاظه مثال صادق للشِعْرِ الفطري القديم، وصورةٌ حَقَّةٌ لهؤلاء الشعراء الذين عاشوا فيها وفُتِنُوا بها، وعَرَفُوا وحوشها وسائرَ حيوانها .

وينبغي أن نلاحظ أن الألفاظ الغريبة كانت تصدر عنهم عفواً، وبدون أن يهتموا بها أو يزينوها، فهي طبيعية وبدون تكلفٍ .

والحق أن شِعْرَهُمْ في البادية كان حُلُواً يسيل عذوبةً ورِقَّةً، ويدلّ على طبعٍ وأصالةٍ فَنِيَّةٍ، ويدلّ كذلك على مقدرةٍ فائقةٍ في تخييرِ الألفاظ من فصيح العربية .

يقول الدكتور سليمان ربيع: "لسنا ممن يقول بغرابة اللغة الجاهلية، أو صعوبة عباراتها، فذلك يجب أن يُقاسَ بمستوى ومعارف الجاهليين أنفسهم، وما دام هذا الأدب كان مفهوماً لديهم يتلقَّونه ويعارضونه ويتأثرون به فهو أدبهم السهل الطبيعي المعروف" (٢) .

والواقع أن علماء اللغة وجدوا في أشعارِ هذيلٍ كنزاً ثرياً من كنوز اللغة العربية، يستمدون منه شواهدهم على الغريب، الذي راحوا يجمعونه من البوادي ليكملوا به موادهم اللغوية . ويكفي أن ننظر في معجم لسان العرب لنرى كيف تنتشر فيه الشواهد من أشعارِ هذيلٍ على كثيرٍ من المعاني التي كان اللغويون يُفسِّرون بها غرائب اللغة وشواردها، فقد انتشرت الشواهد فيه من أشعارِ هذيلٍ انتشاراً واسعاً وبعيداً

(١) المرجع نفسه ٩١٥/٢ العزهي: الذي لا يحبّ اللهو، رَعَتَ: رجعت، تَلَحَّى: تلوم. محمد: ابنه، الخال: من البرود، أَعْتَدِي: أَعْدُو في أطمار، أي: في حُلُقَان، شَمُوس: يَنْفَرَن، خَدَال: غلاظ، فُتِخُ الأَكْفُ من الرُّخُوصَة، حَرَاعِبُ: يَنْثَنِينَ لِينًا، السَّقَى: التي تُسَقَى الماء، حَائِرٌ: مُجْتَمِعُ الماء، كثير الماء، وحاجر مثله، اللَّمَى: اللَّعْس، طَلٌّ: أَحْسَنُ المُنَاسِبِ، قَرَدٌ: مُجْتَمِعُ رَطْبٍ، تَصَابَيْتُ: أَصَبْتُ صَبَابَةً، هَاضِبٌ يَقُولُ: كَانُوا فِيهِ قَدْ هَضَبُوا فِي اللَّهْوِ، وَمَا زَالُوا يَهْضِبُونَ فِي اللَّهْوِ، الرُّنُو إِدَامَةُ النِّظَرِ فِي لَيْلٍ، وَاللَّهُوُ مَعَ شُغْلِ القَلْبِ وَالبَصْرِ وَغَلْبَةِ الهَوَى .

(٢) محاضرات في الأدب الجاهلي د. سليمان ربيع ص ٦٥ .

المدى، ففي هذا المعجم وحده يتردد اسم أبي ذؤيب دون غيره من شعراء هذيل أكثر من ست آلاف مرة، يقول الدكتور عبد السلام سرحان: "ويعُدُّ شعره - أبي ذؤيب - سجلاً ضخماً للكلمات اللغوية التي نطقَ بها العربُ الأقباحُ في البيئة العربية الخالصة، ولهذا ليس بعجيب أن يترددَ اسمُ أبي ذؤيبِ وأبياته في لسان العرب أكثر من ست آلاف مرة، ولم يحظَ أحدٌ بمثل هذه المكانة من الشعراء الذين استشهدَ بشعرهم في كتب العلم والأدب (١)".

ثم إن الأمر كذلك في غير لسان العرب من معاجم اللغة المطولة كتاج العروس للزبيدي وغيره من المعاجم. ثم مصادر الأدب العربي التي تُعنى بالغريب كالكمال للمبرد، والآمالي للقيلي وغيرها. فهناك شواهد كثيرة جداً من أشعار هذيل على معاني الألفاظ اللغوية الغريبة التي يعرض أصحابها لتفسيرها.

والحق أن الغرابة في أشعار هذيل التي اكتسبتها من البادية، تُعتبر بحراً زاخراً وكنزاً ثميناً للغة والأدب، يقول أستاذنا الدكتور عبد السلام سرحان: "إن قبيلة هذيل كانت جُذيلَ الشعر المحكِّكِ وعُذيقَهُ المُرَجَّبِ، إذ كانت في الذروة العليا من اللغة، وفوق القمة الرفيعة لدولة الشعر والأدب، وقد حكوا أن الشافعي - رحمه الله - كان يحفظ شعر هذيل كله ويفخر بذلك، ويبلغ المروي منه (٥٠٠٠) خمسة آلاف بيت.

وقد عنى علماء اللغة والأدب بجمع أشعار هذيل، وشرحها وتنسيقها، وعلى رأسهم الأصمعي وأبو عبيدة، وأبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي، وأبو سعيد السكري وغيرهم.

وكتب اللغة كلها تستقي من نبع الشعر الهذلي، وتكرع من حياضه في شتى المواد (٢).

(١) قطوف من ثمار الأدب للدكتور / عبد السلام سرحان ج٢ ص ١٢٠.

(٢) المرجع السابق ص ١١٩.